كون إيجولدن
المياه السوداء
مكتبة علي بن صالح الرقمية

كون إيجولدن

المياه السوداء

رواي-ة

ترجمة: رشا صلاح الدخاخني

2006

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إلى ماثيو أربينو،

الذي سبح في البحيرة الويلزية

الفصل الأول

وقفتُ وسط المياه وأخذتُ أفكّر في الغرَق. من الغريب أن يكون البحر أهدأ دومًا في الليل. لقد سرتُ عَبْر شاطئ برايتون مئات المرات من قبلُ في الأيام الباردة، ولطالما كانت الأمواجُ تتلاطَم هناك، كل موجة تنزلقُ فوق الأخرى في حركة متوالية. وفي جُنْح الظّلام، كانت المياهُ هادئةً ومُعتمة، لا تُصدِر إلا حفيفًا خافتًا حين تصطدم بالحصى. لا يُمكنك سماعُه بالنهار، وسط أصواتِ طيور النّورس والسيّارات وصُراخ الأطفال، ولكن البحر يهمسُ ليلًا، مناديًا إياك.

أمسَك الموجُ بتلابيب قُماشِ أفضلِ بذلة سوداء لديّ؛ إذ ارتفع مع المَد والجَزْر اللطيف للتيارات غير المرئية. بدا الأمر حميميًا إلى حدّ ما، كما لو كنتُ أُسحَب إلى أسفل وأصير أثقل. داعبَت رياح برايتون الجليدية بشَرتي، أو لعلّني شعرتُ بالخدَر للتّو. وإنْ كنتُ قد شعرتُ به بالفعل، فقد كان خدَرًا مستحبًّا على أي حال. قضَيتُ وقتًا طويلًا جدًّا في التفكير والآن لم يعُد هناك سوى الاختيار الأخير وهو التوغّل في ظلمة أشد.

سمعتُ صوتَ الخطوات الساحقة على الحصَى، إلا إنني لم ألتفِت إلى الوراء. كنتُ أعلم أنني سأكون شبه خفي بملابسي الداكنة هذه بالنسبة إلى السائرين الذين ينزّهون كلابهم أو عَرابِدة آخِر الليل، أو أي شخصٍ يتجرّأ للخروج في هذه الأجواء الباردة. رأيتُ بضعة أشكالٍ باهتة من مسافة بعيدة بجوار الرصيف البحري وسمعتُ أصواتًا مرتفعةً تُنادي بعضُها على بعض. لكنّ شيئًا لم يؤثّر فيّ. ثمّة شيءٌ رائع يتجلّى في الوقوف في عُرض البحر بكامل ملابسك. لقد تركتُ اليابسة ورائي، بضجيجها وأضوائها وبقايا رقائق ملفوفة على هيئة كَوْمة من الورق المُبتَل. استشعرتُ مرارةً في فمي، ولكنّني تحرّرتُ من الشعور بالخوف والذنب، تحرّرتُ من كل شيء. وعندما سمعتُ صوتَه، ظننتُ لوهلة أنها مجرّد ذكرى عابرة.

قال: «هل هناك ما هو أسوأ من الوقوف هنالك في ليلة كهذه؟» كان هذا صوتَ أخي الأكبر. لم أستطِع مقاومة نَوبة التوتّر التي اجتاحت أفكاري الخَدِرة. لقد أمضيتُ هنا ساعات. كنتُ على استعداد للتوغّل في المياه العميقة إلى أن تصير ملابسي أثقل، وأعجز عن تفريغ رئتَيّ من موجة مفاجئة من الفقاعات البيضاء. كنتُ مستعدًا، حين جذَبَني صوتُه إلى الوراء بإحكام وكأنه ألقى بصنّارة شبَكَت بسُترتي.

وقال: «إذا واصلتَ المُضيّ قُدمًا الآن، فستُغرِق كلَينا. سيتعيّن عليّ أن أتبعَك، أنت تعرفُ ذلك.»

أجبتُه بصوتٍ أجشّ: «وربما ينجو واحدٌ منا فحسب.» سمعتُه يضحك ولم أستطع أن ألتفتَ إليه لمواجهته. لطالما كنتُ أخشاه طَوال حياتي، وكنت أعرف أنني إذا التفتُّ إليه فإنني سأُضطرَ إلى النظر في عينَيه مباشرة. سمعتُه يضحك بهدوء.

«ربما، أيها الصبي ديفي. ربما ستكون أنتَ الناجي.»

أخذتُ أفكّر في صبيٍّ كان كلانا يعرفه؛ كانت لديه نزعةُ قسوة بالِغة. كان يُدعَى روبرت بنريث، ولكن والدته كانت تدعوه بوبي. أستطيع أن أرى وجهها في جنازته؛ بدَت شاحبةً للغاية كما لو أنها خُلِقَت من عجين. كنتُ أقف على الجانب الآخر من حفرة رطبة في باطن الأرض أشاهد التابوت ينزل فيها وأتذكّر تساؤُلي عمّا إذا كانت تعرف إلى أيّ مدًى أرهَبْنا ابنها.

كان بوبي يحب الإهانة والمذلّة أكثر من الألم. كان أكثر ما يفضّله على الإطلاق هو إجبارك بكل بساطة على الانبطاح أرضًا وثَنْي قدمَيك فوق رأسك مباشرة، وضغطهما بشدة حتى تكاد لا تستطيع أن تتنفّس. عندما فعل ذلك معي، أتذكّر وجهه الممتقع بقَدر امتقاع وجهي نفسه، لدرجة استطعتُ معها أن أشعر بنبضات قلبي تتردّد في أذنيّ. ورغم صغر سنّي آنذاك، أدركتُ أن ثمّة خطبًا ما في الطريقة التي يشتعل بها حماسُه وثورتُه إلى هذا الحد. وها أنا بعد أن أصبحت الآن رجلًا ناضجًا، فإن فكرة العجز الشديد تجعلني راغبًا في أن أُلحِق الأذى بنفسي.

أظن أن أخي قتلَه. لم أتحلّ قَط بالجرأة الكافية لأسأله صراحةً، ولكن عيوننا التقَت أثناء إنزال التابوت في الحفرة الفاصلة بيننا. لم أعرف كيف أُشيح بنظري بعيدًا، ولكن قبل أن أتمكّن من هذا كان قد غمَز لي وتذكرتُ جميع الفظائع السرية التي اقترفَها في حياته.

غَرِق بوبي بنريث في بحيرة أقصى شمال برايتون، كانت كأنها عالمٌ آخر. كان أخي قد تحدّاه لاجتيازها ذات يوم كانت فيه المياه شديدة البرودة لدرجة كانت تُحيل الجلد إلى اللون الأزرق. وصل أخي بصعوبة إلى الجانب الآخَر، حيث وقفنا ننتظرهما في مجموعة صغيرة كان أفرادُها يرتجفون من شدة البرودة. خرج من البحيرة كما لو أنه خُلق من المطّاط، وظلّ يترنّح ويتخبّط قبل أن ينكفئ على صخرة ويتقيأ سائلًا أصفر ساخنًا عند قدمَيه الحافيتَين.

أظن أنني أدركتُ الأمر قبل أي شخصٍ آخَر، رغم أنني كنتُ أتطلّع مع الآخرين إلى ما وراءه، في انتظار رؤية جمجمة بوبي تطفو بإصرار فوق الماء وسط بُقعة حمراء. استغرق الغطّاسون وقتًا لإخراج جثته في النهاية إلى الشاطئ بعد مرور ثلاث ساعات، رغم ازدحام البحيرة بأعداد غفيرة من الناس تفُوق الموسمَ السياحي. أخضَعَتنا الشرطة جميعًا للاستجواب، وأخذ أخي يبكي بالدموع. كان الغطّاسون يسبّون ويلعَنون بغضبٍ يليق برجال يبحثون عن جثث أطفال بالمياه في أيام مريرة. استشعرنا ازدراءهم كصَفَعاتٍ موجّهة إلينا بينما نقف مرتجفين ومتدثّرين بأغطية حمراءَ خشِنة.

استمعتُ إلى أخي بينما كان يُخبرهم بأشياء لا تستحق الاستماع إليها من الأساس. لم يَرَ ما حدث؛ هكذا قال لهم. فلم يدرك المأساة إلا عندما وصل إلى الضفة البعيدة بمفرده. ربما كنت سأصدّقه لو أنه لم يرَ بوبي وهو يؤذني في اليوم السابق مباشرة.

أنت لا تعرف أبدًا متى بدأَت القصة، أليس كذلك؟ لقد قرّر بوبي أنني أستحق عقابًا خاصًا، جزاءً لمخالفتي إحدى قواعده. كنتُ أبكي عندما مرّ أخي بنا مصادفة وهو ما جعل بوبي يُطلِق سراحي. لم يكُن لدى أحد منّا علمٌ بما قد يفعله؛ ولكن كانت ثمّة غلظة شديدة في أخي تجعل حتى الصبية على شاكلة بوبي يهابونه. مجرّد نظرة خاطفة إلى عينَيه الداكنتَين ووجهه الذي بدا شاحبًا قليلًا على نحوٍ يُبرِز عظام الوجنتَين جعلَت بوبي يُفلِتني من قبضته على الفور.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخَر، ثم ابتسَم أخي. وفي اليوم التالي، خرج بوبي بنريث جثةً باردةً زرقاء على ضفة بحيرة ديروينت ووتر. لم أجرؤ على طرح السؤال أبدًا فاستقرّ بداخلي وكأنه كتلة باردة. شعرتُ بالذنب حتى حيال الحرية التي نِلتُها. لقد استطعتُ أن أمُرّ أمام منزل بوبي دون أن يتملّكني الذعر المعتاد من أن يراني ويسير خطوةً بخطوة إلى جواري. كان لدى الصبي نزعة شر، لكنه لم يكُن يُضاهي أخي في هذه النزعة أبدًا؛ فما من أحدٍ سيُحاوِل السباحة في أحد أيام شهر نوفمبر إلا أحمق مثله. كان مجرد صبي ليس له رادع سوى مَن هو أشد قوةً وأكثر شرًا منه.

بدأتُ أرتجف من البرد وسط الظلام الدامس الذي أحاط بشاطئ برايتون الحصوي. بالطبع لاحَظ هو ذلك، وسمعتُ في صوته نبرة استمتاع عندما واصَل الحديث.

أردَف قائلًا: «يقولون إن المنتحرين لا يتألمون. هل سمعتَ بهذا من قبلُ، يا ديفي؟ إنهم يجرحون ويؤذون أنفسهم، إلا إنهم منغمسون بشدة في الأفكار التي تدور برأسهم لدرجة أن وجع هذه الفعلة الجبانة الوضيعة لا يتجاوز وجع لدغة. أتصدّق ذلك؟ إنه عالَم غريب.»

لم أشعر بمثل هذه البرودة من قبلُ. ظننتُ أنه شعورٌ بالخدَر، ولكنه في تلكم اللحظة بدا يعصف بي دفعةً واحدة، كما لو أن رياحًا عاتية تخترقُ جسدي وتمزقه. آلمَتْني قدماي المغمورتان تحت الماء من البرودة التي نفذَت إلى عظام ساقيّ. عَقَدتُ ذراعيّ فوق صدري وشعرتُ بنفسي أسترجع كل شيء. كنت سأبذل أي شيء آنذاك في مقابل الشعور بالخدَر. كان البديل عن ذلك هو الشعور بالذُّعر والخِزي.

تابع حديثَه قائلًا: «هلّا تُخبِرني عن السبب الذي دفع أخي الصغير الشجاع إلى الوقوف هكذا في عُرض البحر في ليلة باردة كهذه؟ إن الرياح تجعلني أتجمّد في مكاني، لا يسعُني سوى تخيُّل كيف تبدو الأجواء حتمًا في موضعك هذا. ديفي؟ لو كنتُ أعرفُ لأحضرتُ لك مِعطفًا.»

شعرتُ بالدموع تنساب على وجنَتيّ وتساءلتُ في نفسي لماذا لم تتحول إلى ندفٍ جليدية من البرودة التي تخترق جسدي.

قلتُ بعد بُرهة: «ثمّة أشياءُ لا أقوى على تحمُّلها أكثر من ذلك.» لم أكن راغبًا في الحديث عن الأمر. أردتُ الحفاظ على هذه الحالة المزاجية المُرهَفة السلِسة التي واتَتْني عندما جاء، عندما شعرتُ بالسكينة والهدوء. لقد امتلأَت مثانتي عن آخرِها دون أن أنتبه، والآن أعلنَت عن امتلائها. بدا أن كل جزء مني كان يتحكّم فيه بؤسي وشقائي قد استيقظ من سُباته يستغيثُ لجذب الانتباه، وطلبًا للدفء. كم مرّ من الوقت وأنا أقف هنالك؟

قلتُ بصوتٍ منخفض: «أواجه عدوًا.» ساد الصمت وراء ظهري ولم أتبيّن إنْ كان قد سمع ما قلتُه أم لا.

سألَني: «إلى أي عمقٍ قد وصلتَ؟» وفي لحظة جنون ظننتُ أنه يقصدُ عمق الماء.

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي: «لا أقوى على معالجة ذلك. لا أقوى ... لا أقوى على إيقافه.» انساب المزيد من الدموع على وجنتيّ والتفتُّ لأواجه الرجل الذي صار عليه أخي. كان وجهُه لا يزال نحيلًا وطويلًا وكانت خصلات شعره داكنةً وخشنةً متناثرة حول بشرته الشاحبة. ثمّة نساء رَأَينَه وسيمًا إلى حد الافتتان، رغم أنه لم يمكث أبدًا مع إحداهن وقتًا طويلًا. بدا لي أن قسوتَه تراءت بوضوحٍ للعالَم الخارجي متمثلةً في ذلك الوجه الجامد والعينَين اليقظتَين. كنتُ أنا الوحيد الذي يرى ذلك. أما باقي العالم فقد رأى ما أرادهم أن يرَوه. لاحظتُ أنه جاء وبحوزته معطفًا، على عكس ما قال. كانت يداه مدسوستَين في جيبَي المعطف.

قال: «دَعْني أساعدك.» كان ضوء القمر كافيًا لرؤية الشاطئ الحصوي المرتفع من ورائه. كان من المُفترَض أن تُحيلَه ملايينُ الأطنان من الحصى وراء ظهره إلى نقطة ضئيلة في كونٍ فسيح. إلا إنه كان ثابتًا برسوخ في مكانه كما لو أنه غُرِس غرسًا في ذلك الموضع. إن الرجل الذي صار عليه أخي لا يعرف الشك. لا يعرف الضمير، لا يعرف الشعور بالذنب. لطالما عرفتُ أنه ينقصُه ذلك الصوت الإضافي الخافت الذي يتردّد بداخل بقيّتنا ويعذّبنا. لطالما كنتُ أخافُه، ولكن لم يُساوِرني أي شعورٍ سوى الارتياح عندما عرض عليَّ المساعدة.

سألتُه: «وما الذي يُمكِنك أن تفعله؟»

«أستطيع أن أقتُلَه، يا ديفي. كما فعلتُ من قبلُ.»

أخذتُ نفسًا طويلًا وبطيئًا عجزتُ قبله عن الحديث. لم أكن أريد أن أعرف. امتلأ ذهني بصور لبوبي بنريث في حالة من الوهن والضعف بينما كان يسبح في المياه المتجمّدة. كان أخي سبّاحًا ماهرًا، ولم يكن الأمر سيستغرق منه مجهودًا كبيرًا ليُبقيَه تحت الماء، حتى يستنزفَ قواه. فقط فورة من رذاذ الماء ثم الضربات السلسة من الذراعَين في اتجاه الشاطئ، ليصل كما لو أنه مُنهَك. وربما كان كذلك بالفعل. ربما قاوَم بوبي وقاتَل بكل ما أوتي من قوة اليأس.

حدّقتُ في عينَي أخي ورأيتُ جميع السنوات الحائلة بيننا.

ثم أردَف قائلًا: «هاتِ ما عندَك.»

الفصل الثاني

لم يكُن دينيس تانتر من نوعية الرجال التي تُفزِعك عند اللقاء الأول. في الواقع، عندما أُجلستُ على طاولته أثناء حفل رأس السنة الجديدة، لم يَلفِت انتباهي في البداية. كان قصيرًا ومكتنزًا، أشبه بملاكم من فئة وزن الريشة. واكتشفتُ فيما بعدُ أنه كان في العشرينيّات من عمره، وكان لا يزال يتمتع بهيئة جسدية مميّزة وبشرة منمّشة تُحتقَن بسهولة. كانت له قبضة قوية وشعرٌ أصهب، هذا كل ما لاحظتُه قبل التقاط حبّات المكسّرات ومحاولة تذكّر كيف انتهى بي الأمر بالجلوس بصحبة غرباء في ليلة مخصّصة للتجمّع العائلي. لم أرَ فيه مصدر تهديد أو رهبة ولم يكن كذلك حتى تلك اللحظة، من وجهة نظري على الأقل. لقد التقيتُ رجالًا كثيرين على شاكلته على مَرّ السنين، وعادةً ما ينبذونَني بعد المصافحة الوجيزة الأولى. يبدو أنني لا أنتمي لتلك الفصيلة، أو شيء من هذا القبيل. فهم يصنّفونني شخصًا مسالمًا لا ضَير منه، ويمضون إلى حال سبيلهم. كان بإمكاني أن أترك انطباعًا أكبر من ذلك إذا حاولتُ، لكنني لا أستطيع إرغامَ نفسي على الاهتمام بالطقوس الحياتية الصغيرة، لا سيما تلك الطقوس السائدة بين الرجال. وربما كان هذا ما آلمَني.

كانت زوجتي كارول تقوم بواجبها الاجتماعي المعتاد مع الزوجات الأخريات وهن يُثرثِرن معًا عن الدخل المالي والأبناء والتعليم وما إلى ذلك. لقد رأيتُ نساءً جذّابات بإمكانهن إشعالُ نار الغيرة في نفوس الأخريات؛ أما كارول فتمُرُّ مرور الكرام دون أن تَلفِت الانتباه بصورة أو بأخرى. فهي ترتدي دومًا فساتين على قَدْر من الأناقة، وكانت واحدة من أولئك النساء اللاتي يبدو أنهنّ يتمتّعن بالقدرة على توفيق الأقراط مع الأساور إلى حَدٍّ يُضفِي عليها دومًا لمسةً من التأنّق. فليحفَظنا الرب من النساء الجميلات. إنهن يتمتّعن بمزايا أكثرَ مما ينبغي.

لقد ضبطتُ — مرّة، أو مرتَين — طَرْف ابتساماتها أو نظراتها أو غمزاتها السرية، أو بعض الإشارات الأكثر خفيةً التي تصدر إلى شخصٍ غريب تمامًا وكأنها تقول: «على الأقل كلانا يفهم المقصود». وهذا لا يُجدي في تجريد النساء من أسلحتهن فحسب؛ وإنما يؤتي ثمارَه مع الرجال أيضًا. وعادةً ما أترقّب حدوثَ المُراد، من خلال اللمسات المُتبسطة والوقوف على مسافة قريبة للغاية لدرجة أنني أراهم يغادرون

بسياراتهم بينما أسير في طريقي إلى المنزل. ما من شيءٍ أكثر إحباطًا من إمعان النظر داخل سيارة وهي تمُرّ بجوارك تحت الأمطار. كانت هناك مشاحناتٌ معتادة. وذات مرة، حين كنتُ لا زال أهتم بالقَدْر الكافي، تعاركتُ مع أحد الرجال على العشب الرطب حتى لاذ بالفرار، تاركًا إياي بأنفٍ مكسور. من المُدهِش أن ترى مدى لزوجة الدماء حين تعلق بيدَيك.

لم أكُن لأختار الزواج من تلقاء نفسي، لم تكُن زيجةً من اختياري. اعتدنا الصِّراخ أحدُنا في وجه الآخَر، ومنعَتْني من دخول المنزل مرتَين. ربما كان حريًا بي أن أغادر، ولكنني لم أكن أفعل. البعض لا يرحلون وحسب، ولا يسعُني أن أمنحك مبررًا أفضل من هذا. كنتُ أحبُّها آنذاك. وما زلتُ أحبُّها إلى الآن. أعرفُ أنها تخشى ألف شيء وشيء؛ تخشى التقدُّم في العمر، تخشى إنجاب أطفال. أقول لنفسي إنها تأتي بهؤلاء الرجال إلى فراشنا عندما لا تقوى على التحمُّل وتضيق بنفسها ذَرعًا، وهذه النوعية من الأكاذيب تُساعدُك على تجاوز الأمر أكثر مما قد تظُن. أما الآن، فلا أسألها عن الليالي التي تقضيها بالخارج. ولا أسمح لها بالدخول إلى الفراش حتى تغتسل وتتخلّص من الروائح العالِقة بها، ونسيّر أمورنا بشكلٍ أو آخَر، عامًا تلو الآخر. أحبُّها وأكرهُها، وإذا كنتَ لا تعرِف كيف يكون هذا، فأنا أحسُدك على ذلك حقًا.

عندما كنتُ في الثانية والعشرين من عمري، ارتَدتُ مع كارول ملهًى في منطقة كامدن. لقد عرفتُها منذ زمن، وأنت تعرف ذلك الشعور قطعًا. كان أخي معنا وكانت تتأبّط ذراعَه أنثى جميلة تُدعى ريتشيل، وكانت فتاةً ترقص في الملهى الليلي كل يوم سبت. لم تكُن تتقاضى أجرًا على ذلك، لكن كان لديهم منصة مرتفعة هناك، ولم يعترض أحدٌ على رؤيتها تتمايل مثلما كانت تفعل.

كان ذلك الملهى شبه مظلم تمامًا، وأجواؤه مُعبّأة بالإثارة والموسيقى. وكلما ظنَنتَ أنك قادرٌ على التقاط أنفاسك، تقتحم آلة الضباب الدخاني المشهد وتملأ حلبة الرقص بالدخان الأبيض الخانق. شربنا حتى الثمالة من زجاجات كبيرة من بيرة نيوكاسل، وعندما صدَح اللحن المناسب صعدنا إلى ذلك الجزء المرتفع لننضم إليها. كان هذا الجزء أكبر مما كنتُ أدرك، وكان يُوجد أشخاصٌ يستندون إلى الحائط خلفنا بينما كنا نتراقص ونُهلّل. كان الجو أشد حرارة مما قد تتخيّل، فخلعتُ قميصي، ولكنني كنتُ نحيلًا وضئيلًا بالقَدْر الذي لا يجعلني أكترثُ بما يظنّه أي أحد.

أتذكّر لقطات من تلك الأمسية وكأنها ومضاتٌ سريعة تسطع وتخبو، إلا إنني أتذكّر فتاة أخي وهي تتمايل إلى جواري بشعرها بحركة دائرية عنيفة مرارًا وتكرارًا،

حتى اصطدم شعرها بصدري وكتفيّ بقوة كافية حتى إنه لسعَني. أحببتُ ذلك الشعور.

خرج رجلٌ من وسط العتمة من عند الحائط الخلفي وطلب كارول إلى الرقص. كان قصير القامة ونحيف القوام وأخذ يتمايل قليلًا أثناء وقوفه هناك. استطعتُ أن أميّز أنه كان ثملًا ولذا لم أرَ فيه مصدَر تهديد، مثلما فاتني أن أحسب دينيس تارنتر تهديداً في تلك الليلة الأولى. ربما كانت تلك مشكلتي. فأنا لا أرى قدوم هؤلاء الأشخاص.

هزّت كارول رأسها بتلك الطريقة الاعتذارية اللطيفة التي تميّزها وأشارت إلى زوجها المُحِب، وكأنها تقول: عذرًا أنت تعلم ما يقتضيه الارتباط بزوج. فحدّق إلى حيث أشارت قبل أن يهزّ كتفَيه في عدم اكتراث وينصرف. هكذا كان يجب أن ينتهي الموقف.

لم يدُر بخلَدي أي شيءٍ مما كان يحدث إلى أن تلقّيتُ ضربةً على مؤخرة رأسي. هل سبق لك أن تعرّضتَ للضرب بقَدْر يسير جدًا من القوة وآلمَتْك هذه الضربةُ كما لو أنّ نارًا سفعَتك؟ ثمّة نقاطُ ضغط موزّعة عَبْر أجزاء جسدك كافة، أشبه بنقاط غادرة صغيرة تغتال اعتدادَك بذاتك. كانت الطريقة التي ضربَني بها هذا الثمِل على العكس تمامًا. نظرتُ من حولي في حَيْرة، ظنًا مني أنّ أحدهم اصطدم بي أثناء مروره بجواري. كان الوغد الضئيل البنية يقف خلفي مباشرة، وقد التمَعَت عيناه في الأنوار الوامضة. صاحت كارول وسط ضجيج الموسيقى، حيث كان يحاول أن ينطح رأسَه برأسي.

كان مُغيّبًا تمامًا بفعل الشراب، وبينما كان يبتسم لي ابتسامة عريضة شعرتُ فجأةً بأنني لا أقوى على الاحتمال. دفعتُه بكلتا يديّ واكزًا صدره ليسقُط عند أقدام عشرات الغرباء. أتذكّر أنني كنتُ أفكّر في أنه إذا صعد إلى حلبة الرقص، لاضطُررتُ إلى القفز من على المنصة لأختفي وسط الحشد. أنا لا أتعارك مع الناس في الملاهي الليلية. ولا أشعر بالخجل من حقيقة أنني لا أستمتع بفَورة اندفاع الأدرنالين مثلما يستمتع الآخرون حسبما يبدو.

كان قلبي ينبض بسرعة شديدة لدرجة أنني شعرتُ بالدّوار والغثيان. ارتجَع السائل الحمضي من معدتي إلى فمي وابتلعتُ ريقي بصعوبة، مما جعلَني أجفل. جاءت كارول لتقف عند كتفيّ ونظر كلانا بازدراءٍ إليه. حتى تلك اللحظة كان يبدو مأمون الجانب وهو مستلقٍ ممددًا على الأرضية وابتسامتُه العريضة لم تتزعزع مطلقًا. ورغم أنه حاول الاعتداء عليّ بالفعل، لم أحسبه يمثّل خطرًا حتى في هذه اللحظة.

استطاع أخي أن يُفوّت كل هذه الإثارة بذهابه إلى بار المشروبات. وبحلول الوقت الذي عاد فيه، كنتُ قد تحرّكتُ أنا وكارول بهدوء إلى أحد جانبَي المنصة الصغيرة، متخذَين حائطًا صُلبًا ساترًا لظهرَينا. صحيحٌ أنني قلتُ إنني لم أحسب ذلك الرجل الضئيل البنية تهديدًا، ولكنني لا أريد أن أرقص مُوليًا ظهري إيّاه أيضًا. لم يعرف أخي شيئًا عن الأمر بالطبع. مرّر المشروبات وواصَل الرقص والصّراخ وسط الحشد. يا إلهي، كنا حينها شبابًا. لقد خلع قميصَه كذلك، وكان أكثر فخرًا ببنيته الأكثر نحافةً مني.

رأيتُ المُعتدي عليّ يخرج من وسط الظلام. كان أخي يرقص حيثما كنتُ أرقص وكان يرتدي الملابسَ نفسَها تقريبًا. حطّم الرجل زجاجةً على مؤخرة جُمجُمتِه واندفَع كلاهما من فوق المنصة إلى حلبة الرقص، ليتفرّق الحشد أثناء سقوطهما.

تجمّدتُ في مكاني دقيقة، ولا أفخر بذلك طبعًا. بدا وكأن الموسيقى توقّفَت، ولكنها بالطبع لم تتوقّف. صَرخَت كارول، ثم تحرّكتُ أنا، لأقفز وأُمسِك بجسدَين زلِقَين، الْتَحَم أحدُهما بالآخَر. تفاجأ أخي تمامًا، ولكن بينما كنتُ أقفز عليهما بكل ثقلي، كان يُزمجِر ويُقاتِل كالمجنون. استطعتُ أن أرى بياض عيونهما وهما يكشران عن أنيابهما. كان كلاهما يُحكِم قبضتَه على تلابيب الآخَر بقوة بالغة. لم أستطع تحرير قبضة أخي. وانزلقَت يداي على جلده وارتعبتُ حين أدركتُ أن ثمّة كمية «مهولة» من الدماء تتدفّق من مكانٍ ما. تناثرَت قطع الزجاج المكسور في كل مكان ولطّخَت البيرة والدماء يديّ. نزلتُ مرّةً أخرى، وفي تلك اللحظة ضخّت آلة الضباب الدخاني سحابة كثيفة من الدخان. وعبّأ الضباب الكثيف حلبة الرقص وفقدنا جميعًا القدرة على الرؤية.

جاهدتُ لآخذ نفَسًا، وانتابني الفزع من أن أتلقّى لكمةً أو أُصاب بجرح بينما كنتُ عاجزًا عن الرؤية. كنتُ ما زلت ممسكًا بجلد زلِق، وفي مكانٍ ما أسفلَ مني واصَلَا التناحُر فيما بينهما في حالة من الهياج، ليُحدِث كلٌّ منهما أكبر قَدْر ممكن من الألَم والضرر للآخر.

أخيرًا سمعتُ الحُرّاس قادمين، وكانت هناك أيادٍ تشير وأشخاص يصيحون في كل مكان. شعرتُ بأذرع قوية تسحبُني بعيدًا. الرب أعلم أين ذهبَت كارول في تلك اللحظة. لم ألُمها لفرارها من الموقف. بل ألقيتُ اللوم على السكّير الشرّير الضئيل البِنية الذي طردَه الحُرّاس إلى الخارج من بوابة خلفية للملهى.

رفع الحراس أخي ليقف على قدمَيه وقد بدا وكأنه شخص همجي متوحّش. كان في حالة من الذهول وصدره العاري ملطّخ بآثار الدماء. أخذَه الحُرّاس إلى حمّامهم الخاص

في مكانٍ ما بالجزء الخلفي من الملهى الليلي، وذهبتُ معه لأزيل الدنَس عن يديّ. من المذهل حقًا أن ترى إلى أي مدًى قد تلتصق الدماءُ بأصابعك. فحتى كمية صغيرة منها يُمكِن أن تتغلغل إلى أبعدَ مما تتخيل.

كنّا بمفردنا في ذلك الحمّام الذي يتردّد صدى الصوت بداخله وهو ما جعلَني أشعر كأنّني ممثّل يقف خلف الكواليس. استمرّت الموسيقى تصدح بأنغامها وسط كل هذه الأحداث، وكانت الإيقاعات المُدوّية بالخارج لا تزال تصل إلى أسماعنا، على الرغم من أنها آتية من بعيد. حسنًا، لم أكُن متورّطًا بأي حال، ولكنني كنتُ خائفًا ومُلطّخًا بالدماء. شعرتُ وكأنني نجوتُ لتوّي من معركة. وبعيدًا عن الزحام والخطر، ارتفعَت روحي المعنوية بالسرعة الكافية، رغم أنّني رأيتُ أثَر الجُرح الغائر في رقبته بسبب الزجاجة. كانت الدماء تتدفّق ببطء، ليتخلّف عنها أثر داكن وحاد لن يتوقف عن النّزف.

نظر إلى الجرح في المرآة ورأيتُ إلى أي مدًى صار وجهُه شاحبًا.

قلتُ له: «يجب أن نصحبك إلى المستشفى، من أجل خياطة الجرح.» كان لا يزال مذهولًا ولم أكُن أريده أن يتساءل عن السبب الذي جعل معتوهًا يعتدي عليه بلا أي سبب. كنتُ أعرف أنني المقصودُ حتمًا وشعرتُ بقَدْر من الارتياح والذنب كان كافيًا لأشعر بالدّوار.

عندما التفَت إليّ، أدركتُ أنه يستشيط غضبًا. ناولتُه بِكُرة من المناديل ليكتم الجرح النازف من رقبته.

قال وهو يربّت برفقٍ على الجُرح بينما كان يحدّق في انعكاس صورته في المرآة: «كان بوسعه أن يقتلَني. أين ذهب؟»

أجبتُه قائلًا: «لقد غادر منذ مدة طويلة الآن. طردَه الحُراس إلى الخارج.» هزّ كتفَيه في لا مبالاة، وارتدى قميصَه فوق لفة المناديل الورقية. أخذ يسبّ ويلعَن عندما رأى سِروالَه قد تمزّق وأن هناك المزيدَ من الدماء تُلطّخ ملابسه.

قال: «إنه مَدين لي.»

وتبعتُه إلى الخارج.

* * *

كان من المُفترَض أن يكون ذلك الرجل، أيًا كان اسمُه، قد عاد إلى المنزل. وما كان ينبغي له أن يقف عند محطّة للحافلات على بُعد خمسين ياردةً فقط من الملهى الليلي. كان هذا خطأَه الثاني في تلك الليلة، وأحيانًا قد يتسبّب خطأٌ واحد فقط في مقتلك. فعندما رأى أخي يسير في اتجاهه، كان حَريًا به أن يركض، كان عليه أن يفعل ذلك حقًا. ولكنه بدلًا من ذلك، ابتسم الابتسامة العريضة الصافية نفسها، كما لو أنه لا يُلقي بالًا لشيء في هذه الدنيا.

سدّد أخي إليه ضربة قوية كفيلة بطرحه أرضًا، وجُرحَت مفاصلُ يده بأسنان الرجل. ثم ركلَه وهو مُستلقٍ على الأرض مرتَين قبل أن ينهارَ أكثر. كان حَريًا بي أن أُوقفَه عند هذا الحد آنذاك. سُحقًا، كان عليّ أن أمنعَه من مغادرة الملهى الليلي وأُصر على اصطحابه إلى المستشفى. لكني لم أفعل. كنتُ راغبًا في الانتقام منه ولو قليلًا أنا أيضًا. كان من الممكن أن أُقتَل في تلك الأمسية. لستُ فخوراً بذلك، ولكن كان هناك دَينٌ يجب سدادُه.

كانت ركلة أخرى في الرأس كفيلةً بالإجهاز عليه، لولا تلقّيه ضربتَين مكتومتَين أخريَين بَقِي بفضلهما طريحَ الأرض. لم أتمكّن من رؤية وجه الرجل، ولم تكُن لديّ رغبة في ذلك. كنتُ أحاول كبح جِماح أخي ببطء، ولكن في النهاية، وبعد فوات الأوان، رأيتُه. شعرتُ بالراحة من جَرّاء هذا. أنا لستُ كأخي في شيء، حتى وإن كنتُ في قمة غضبي وغيظي. لستُ مثلَه في شيء. كان سيُوسِع ذلك الرجل ركلًا حتى الموت. وربما فعلَها وأجهَزَ عليه بالفعل.

تركناه ممدّدًا على الرصيف واصطحبتُ أخي إلى المستشفى ليخيط جُرحه وتُغازله إحدى الممرِّضات. قرأتُ صحف اليوم التالي بحثًا عن خبر مقتل أحدهم في منطقة كامدن، بالقرب من ملهى أندروورلد. ولكن لم يكُن هناك أيٌ أخبار.

***

عندما التقَينا بدينيس، كانت كارول لا تزال تجتذب الرجال إليها عند شعورها بالتعطّش إلى ذلك، إلا إنها قد تعلّمَت بضعة أشياء تُبقيهم على مقربة منها. وعلى مدار سنوات، لم أكُن مضطرًا إلى التعامل مع أحد متطفّليها هؤلاء، أولئك الذكور الغريبي الأطوار الذين يتظاهرون بأنهم زملاءُ مهتمّون أو أصدقاءُ في حين أنهم ينتظرونها لمشاركتها الفراش. كان يكفي عادةً حديثٌ هادئ على انفراد، لمجرد إعلامهم بأنني أعلَم كل شيء. ولم أكُن بحاجة إلى مساعدة حتى الْتَقينا بدينيس تانتر. وحتى في

ذلك الوقت ربما كان كافيًا أن أغض الطرف عن بضع أمسيات تقضيها كارول في الفنادق حتى تُشبِع رغبتها المُلِحّة.

تظن أن المرة الأولى ستقضي عليك، ولكنه لا يحدث. والليلة هي أسوأ ليلة في حياتك، ولكن عندما يغلبك النوم تتوقّف مخيّلتُك عن العمل. وتستيقظ في اليوم التالي وتجدها تُعِد الإفطار ويعود كل شيء على خير ما يُرام مرّة أخرى. كان بإمكاني أن أتعايشَ مع ذلك الوضع، كنتُ «أعلم» أن بإمكاني ذلك. كانت المشكلة أن دينيس تانتر أراد الاستئثار بكارول لنفسه.

الفصل الثالث

هل تعلم ما الذي يمنح رجلًا سُلطة على غيره من الرجال؟ ستظنّ أنه المال، أو شغله منصبًا مرموقًا، ربما قاضٍ، أو سياسي. بكل صدق، متى يؤرّقك ذلك النوعُ من السلطة؟ لم يسبق لي أن دقّ بابَ منزلي وزير الخارجية وأصرّ على تحريك سيارتي من مكانها. وأعتقد أنه لو فعل ذلك لاتصلتُ بالشرطة على الأرجح. لا أقول إن هؤلاء لا يتمتّعون بسُلطة، بشكلٍ أو بآخَر. فهم بالطبع لديهم سُلطة؛ بل ربما يملكون قدرًا كبيرًا جدًا منها. إلا إنها ليست نوعية السُّلطة التي تحطّ من قَدْرك بصفة يومية. فهم لا يأتون إلى منزلك ويسلبونك محفظتَك، إذا كنتَ تفهم ما أقصدُه.

ومع ذلك، ثمّة مكانة أدنى من ذلك، أدنى من السلطة القضائية وحُراس الأمن، عندها حقًا يمكن أن ينخلع قلبُك من ضلوعك. الأمر لا يتطلب جيشًا وحتمًا لا يتطلب مبالغَ طائلةً من المال. ففي مقابل بضع مئاتٍ من الجنيهات في الأسبوع، يستطيع المرء أن يستأجر شخصًا آخَر ليلكُم ويركُل ويكسر، بل وأحيانًا ليغتصب أو يسرق، إذا ما اقتضت الحاجة. رجل «واحد» فقط ينجز أي شيء يُطلَب منه، أيًا ما كان. وهذا كل ما يتطلّبه الأمر. ولا يسعني سوى أن أتخيّل كيف يبدو حتمًا استئجار أحدهم.

إن الرجال على شاكلة دينيس تانتر يقضون أمسيةً ممتعة في أحد المطاعم، وبحلول الوقت الذي يعودون فيه إلى المنزل، يكون أحدُهم، ممّن يريدون إخافتهم، قد اقتُحِم منزله وكُسِرَت أصابعه على يد شخصٍ غريب عنه تمامًا. ولا تستطيع أن تتوجّه إلى الشرطة لأنك تعرف أن الأمر سيزداد سوءًا في المرة الثانية. كما أنك تعرف أن ذلك الشعور بالخوف عادةً ما يكون رادعًا بالصورة الكافية. ومعظم الرجال يعجزون عن منع مجرم عتيد من طَرحِهم أرضًا وتهشيم رءوسهم بعنفٍ على بلاط المطبخ الذي يقتحمونه. فمعظم الرجال يهتمّون لأمر امرأة، أو طفل، أو شيء يحيك في صدورهم ويعتصر قلوبهم خوفًا وفزعًا إذا ما جاء ذكره حتى. لا يتملّكُك خوفٌ كهذا من الساسة أو القضاة. فأنت تعرف أن لهؤلاء حدودًا، مهما كان ما يحدث. فإذا خرجتَ حرًا طليقًا من المحكمة، لا تتوقّع أن ترسل الشرطة رجالًا إلى منزلك في تلك الليلة لتطبيق القليل من العدالة عليك.

في الواقع، لقد التقيتُ بمايكل، حارس دينيس، في حفل رأس السنة الجديدة. لم يكُن

ضخم الجثة، كأولئك الحُراس الذين تراهم يقفون عند أبواب الملاهي الليلية. لقد وجد دينيس لنفسه ملاكمًا متينَ البنية، طولُه ستٌ أقدام، ليس عنده وازعٌ أخلاقي واحد يؤرّق ضميره. بل إنني تحدّثتُ مع مايكل في تلك الليلة الأولى، وأظن أنه كان ينبغي أن يكون لديّ شيءٌ من الحذَر، من منطلَق الفطرة الغريزية. فلو أنك شعرتَ بقشعريرة تسري في عمودك الفقري حين التقيتَ الرجل الذي سوف يُفقِدك الوعي بلكمة من قبضته بعد شهر من الآن، لكانت الحياة أسهل كثيرًا.

أُدرِك الآن أنه أوقفَني عند بار المشروبات لأن دينيس كان يتحدّث مع كارول. فوجود رجلٍ واحد فقط على كشف الانتظار يجعل مثل تلك الأمور سهلةً ويسيرة. مجرد كلمة سريعة على انفراد كافية ليضيع الزوج نحو ساعة في دردشة قصيرة متوتّرة مع شخص غريب تمامًا. حتى إنني تناولتُ صينية مليئة بالمشروبات، ولكن في كل مرّة أهمٌ بالعودة إلى الطاولة مرّة أخرى، يضع مايكل إحدى يديه على ذراعي ويقول تعليقًا، أو دعابة، أو يطرح عليّ سؤالًا سخيفًا. أتذكّر أنه قال لي إنه اكتسب القليل من الوزن خلال فصل الشتاء، ولكن مع مجيء فصل الربيع، عندما يكون «في موسمه»، يتحوّل هذا الوزن الزائد إلى عضلات. لم أسمع أيّ شخص يصف نفسه بتلك الطريقة من قبلُ. لم تكُن الدماثة هي ما تُبقيني، بل الخوف الشديد من كونه ثملًا وعنيفًا ولم أرغَب في إغضابه. وقفتُ لأطول فترة ممكنة، وعندما انصرفَ أخيرًا ليأخذ باقي حسابه من النادل، عُدتُ إلى الطاولة.

لم تكُن كارول هناك ولا دينيس أيضًا. من السهل الآن فهمُ ما حدث، إلا إنني لم أفهم شيئًا حينها. قاربَ الليل على الانتصاف وكنتُ أتجرّع كأسًا تلو الأخرى. ارتشفتُ كأسًا كبيرة من البيرة حتى القطرة الأخيرة منها ثم بدأتُ أرتشف كأسًا أخرى عندما عادت كارول فجأةً إلى الطاولة وظهر دينيس أيضًا، ليُقبّل زوجته عندما بدأ العد التنازلي لاستقبال العام الجديد. لن تظن أنني قد يفوتني شيءٌ كهذا، لعلمي بما كنت أفعل في الماضي، إلا إنني وضعتُ حدًا لهذا النوع من جنون الارتياب. فهو يلتهمك حيًا، لا سيما حين تكون محقًا في ارتيابك من حين لآخَر. لا يمكنك أن تراقبهما طوالَ الوقت. فهذا يدمّر أعصابك ومعدتك وربما قُواك العقلية.

أتذكّر أن كارول بدت متورّدة الخدّين قليلًا. أرجعتُ هذا إلى الكحول والإثارة. تساقطَت البالونات من السقف وتشابكَت أيادي الجميع مع الغرباء وغنوا تلك الأغنية الاسكتلندية التي لا تعرف منها إلا سطرًا واحدًا ويواصل الجميع ترديده مرّة تلو الأخرى. كان هناك رجلٌ يرتدي تنورةً اسكتلندية، وأتذكّر أنني ابتسمتُ عندما رأيتُه

والتفتُّ إلى كارول لأرى ما إذا كانت قد لاحظَت. ردّت عليّ بابتسامة وكان كل شيءٍ على ما يُرام.

* * *

الشيء الذي يجعلني أشعر بالمرارة حقًا أن دينيس المتمرّس المسكين لم يكُن يعرف المرأة التي يتعامل معها حقّ المعرفة. ولو أنه لاحقَها كما يُلاحِق معارفه في العمل، لجعلَها تخلع تنّورتها بعد وجبة أو اثنتين. المشكلة في كارول أنها تبدو على العكس تمامًا. إذا كان بإمكانك تخيُّل الممثلة الأمريكية جريس كيلي ولكن بشَعر داكن، فهي من هذا المنطلَق لا تشبهها على الإطلاق؛ وإنما تُشبِهها من حيث «السلوك»، والعنق الطويلة والبشرة الفاتحة. إنها من نوعية النساء اللاتي تريد أن تعبث بهن قليلًا، وأن ترى خصلات الشعر اللولبية تنسدل، وبريقًا خبيثًا ينبعث من عينَيها. هل تعرف هذا النوع من النساء؟ إنها من نوعية النساء التي تريد أن تلهث وتنقطع أنفاسُها عندما تقبّلها. لقد عملتُ جاهدًا على ذلك عندما كنّا معًا في شبابنا. كانت ثملة بعض الشيء في أول لقاء لنا معًا. لم يكُن الأمر مثلما تخيّلتُه. بالكاد استطعت أن أراها في الغرفة المُعتِمة الكائنة خلف السكن الجامعي للطلاب. كانت فخذاها طويلتَين وبيضاوَين ويُصدِران صوتًا هامسًا بينما أمرّر يدي عليهما. أتذكّر أنها كانت تُهدهِد رأسي إلى جسدها، كما لو أنها تحمل طفلًا. أعتقد أن أحدنا بكى في هذا الوضع، ولكن كنّا ثملَين وصغيرَين، وكان ذلك قبل وقت طويل وكنا شخصَين مختلفَين.

بالطبع، ظنّ دينيس أنه وجد حُب عمره الكبير.

* * *

تبيع كارول المنازل إلى الناس نظير أموالٍ طائلة، تبيعها إلى نوعية الأشخاص الذين يحيطون أنفسهم بصور ذات إطارات مُذهبة وينسّقون الألوان لتليق مع صنابير حمّاماتهم. وما كان دينيس ليبدو بندًا شاذًّا في قائمة عملائها، حتى وإن اتخذ من مايكل سائقًا له. لقد سمعتُ اسمه عندما تركَت فتاة من مكتب كارول رسالة بخصوص اصطحاب «السيد تانتر» في معاينة أخرى. لم أدرك الأمر في البداية، ولكن ثمّة رسالة أخرى في اليوم التالي. ضغَطتُ على أزرار الهاتف وسمعتُ صوت الفتاة؛ وتردّد صوته في الخلفية وهو يُلقي دعابة. أظن أنني عرفتُ بالأمر حينها على الأرجح؛ إذ إنني مسحتُ الرسالة. لم تكن كارول قد سمعتها بعدُ، إلا إنني كنتُ أريد محوها من ذاكرة الهاتف، كما لو كان بإمكاني محو شكوكي ببضع نقرات سريعة.

إنها تكرهُني عندما أظن أن ثمّة شيئًا ما يحدث في الخفاء. تقول إنني أتظاهر بكوني طبيعيًا وودودًا، ولكن طَوال الوقت ثمّة ضغينة تراها في عيني ولا تستطيع تحمّلها. وتقول إن هذا يجعلها لا ترغب في البقاء في المنزل. وأحيانًا تخرج وتعود في الثانية أو الثالثة صباحًا تفوح منها رائحة الخمر وقَدْر مبالَغ فيه من العطر. وعندما تكون ثملة، أتظاهر أنا بالنوم. فإذا وجدتني مستيقظًا، تتحدث وكأنها عاهرة رخيصة، وكل ما يمكنني فعله إزاء ذلك أن أستلقي في الفراش، وأتظاهر بأنني لا أستطيع سماع آخر كلمة مما قالته. إنها لعبة أخرى من الألعاب الصغيرة التي نلعبها معًا.

أعتقد أن دينيس قد استغرق نحو أسبوع ليطلب منها أن تُرافقه إلى أحد الفنادق. ربما لو كان يعرفها حق المعرفة لحدَث ذلك في وقت أبكر من ذلك، ولكني أظن أنه ربما شعر بأنه الرجل الأوفر حظًا في العالم حين أسقطَت تنّورتها حتى كاحلَيها وخطَت خارجها. لطالما كنتُ أنا الطرف المستقبِل لأفضل ما تعرضُه هي، وهذا ما أسَرَني بالأساس. أقصد أنني ما زلتُ معها رغم مرور عدة سنوات في دائرة مفرغة؛ ولذا أستطيع أن أقدّر ما شعر به دينيس، ألستَ معي في ذلك؟ لا أقول إنني أفهَم الرجل. لقد كان شخصًا استغلاليًا، وعرفتُ هذا من المرّة الأولى التي التقيتُه فيها. كان واحدًا من الأشخاص الذين يستغلّون من حولهم من أجل المتعة أو الجنس أو الصداقة، مثل أخي تمامًا.

وأحيانًا يرتكب هؤلاء خطأً بظنهم أنهم قد عثَروا على شيء أهمّ مما هو عليه حقًا. وقد ارتكب دينيس ذلك الخطأ مع كارول، تحديدًا في اللحظة التي استيقَظ فيها بالفندق ووجدها قد رحلَت. لقد عادت إليّ في المنزل مع الساعات الأولى من الصباح، ولم يكُن دينيس من النوعية التي تفهم ذلك النوع من العلاقات. سُحقًا، أنا أيضًا لا أفهمها، وأُعايِشها.

عادت إليّ بالمنزل لأنها دائمًا ما تعود إليّ. فهي لا تبقى حتى الصباح، لا تبقى بعد أن يغطّوا في النوم. على أي حال، فاستقبال الصباح في فندق ما هو إلا أنفاس كريهة وملابس مجعّدة وإفطار إنجليزي بالكامل به كمية مُفرطة من الملح والقهوة المحروقة. ولأكون صريحًا، أنا لا أهتم حقًا بمعرفة السبب الذي يجعلها تثق بي بالقَدْر الكافي الذي يجعلها دائمًا تعود إليّ. لعلها تحبّني بقَدْر ما أحبّها.

بالطبع لم يمنعها ذلك الحُب العظيم الذي تُكنّه لي من تكرار الواقعة مرّة أخرى. ولا أعرفُ ما إذا كان هذا اللقاء قد تم في فندق آخر، أو ربما في منزله الخاص. كان الفارق من وجهة نظري أنها في المرة الثانية التي قضَت فيها أمسيةً بالخارج في ذلك

الأسبوع، كان دينيس قد رتّب لي استقبال زائر لطيف في بيتي. فبينما كان يعتلي كارول فراش مخملي وثير في مكانٍ ما، كنتُ أنا أفتح الباب وفي يدي شريحة خبز محمّص عليها قطعة من الزبد. هل يمكنك أن تتخيل شيئًا مسالمًا ينتمي للطبقة الوسطى أكثر من ذلك؟ كان فمي ممتلئًا عن آخره بالخبز ومعجون الطعام عندما تعرّفتُ على مايكل وكنتُ منخرطًا في محاولة إيجاد شيء لقوله حين أخذ خطوة إلى الأمام ودفعَني دفعةً عنيفة طرحَتْني أرضًا على ظهري. أظن أنه داس على إحدى قدَميّ أولًا، غير أنني لم أعبأ كثيرًا بذلك نظرًا لأن رأسي اصطدم بقوة بأرضية الردهة. لو أنها كانت مفروشة بالسجّاد، لربما كنتُ أكثر يقظةً قليلًا على مدار الدقائق القليلة التالية. لسوء الحظ كانت الأرضية من خشب مُصمَت، وهو أحد الأشياء التي أقنعَتْنا بشراء المنزل عندما عاينّاه لأول مرة.

كانت الطبيعة غير الرسمية للموقف هو ما جعله مهينًا للغاية. أعتقد أن معظمنا قد تساءل في نفسه عن الطريقة التي يجب اتباعها للتعامُل مع لصٍّ مثلًا، إذا ما واجهنا أحدهم. إنني أستمتع تمامًا بحديث رجال السياسة عن «القوة الدفاعية المعقولة» لمثل هذه اللحظات الحياتية. وصدّقني حين أُخبِرك أن الشعور بالذعر يشوّه أي شيء ذي صلة بالعقلانية. فتحتُ الباب وفي رأسي فكرة مُبهَمة عن مباراة لكرة القدم مذاعة عَبْر التليفزيون. وبعد لحظة، كنتُ شبه مصعوق وأُصِبتُ بالعمى بسبب ضوء الردهة المُسلّط فوقي مباشرة. شعرتُ بيدٍ تُمسِك بياقة قميصي ووجدتُ نفسي أنزلق فوق الأرضية الخشبية في اتجاه المطبخ. فزِعتُ وحاولتُ أن أنهَض، ولكن لم أكُن أرتدي حذاءً وانخلعَت جواربي أسفَل مني. ولم أقوَ على فعل شيءٍ أكثر من مجرّد حركات ركل في الهواء من فَرْط الذّعر الذي تملّكني.

يُوجَد في المطبخ طاولة صغيرة وكرسي. كانت المساحة ضيقة جدًا، إلا إن كارول أصرّت على أن يكون هناك مكان يمكّنُها من استخدام كلمة «غرفة الإفطار» عند الترويج لبيع المنزل. فهذا مجال عملها على أي حال. خطَر ببالي تلك الأفكار الغبية عندما سحبَني مايكل إلى أعلى وألقى بي على الكرسي الخاص بي. ألهذا صِلة بالقوة المعقولة؟ وددتُ أن أرى أحدهم يستخدمها مع مايكل وهو يتكئ بقبضتَيه الضخمتَين على طاولة مطبخي.

سألتُه: «ماذا تريد؟»

رد قائلًا: «هل لديك ويسكي؟» أومأتُ برأسي، وهممتُ أنهض من مكاني لأُحضِره بحكم العادة.

فضغط بإحدى يدَيه على كتفي، مثبتًا إياي في مكاني دون أدنى عناء على الإطلاق.

قال وهو ينظر إلى الخزائن المثبّتة عَبْر جدار المطبخ: «أخبرني أينَ هو فحسب.»

قلتُ له: «هناك بجوار الباب.» كان سيستدير وكنتُ سأمد يدي نحو أحد السكاكين الموجودة بجوار الحوض من ورائي.

وبدلًا من تنفيذ خطتي، مدّ هو يدَه وسدّد لي ضربةً في الوجه، بكل ما أُوتِي من قوة. أظن أنني فقدتُ الوعي حتمًا لبعض الوقت؛ إذ إنني فقدتُ تتبُّع مكانه واضطُرِرتُ إلى رفع رأسي والنظر من حولي بحثًا عنه. كان يسكب القليل من نبيذ لافرويج في كأس وبدا كل شيء في المطبخ أكثر بريقًا من المعتاد، كما لو كُنا في فيلم.

تمتَمتُ فيه وأنا أشعر بالغثيان: «اخرج!» وحين تحدّثتُ، شعرتُ بارتجاع السائل الحمضي من معدتي إلى فمي. لطالما كان هذا ما يحدث لي، بعد أن تعرّضتُ لمشكلة في صمام متدهور. فالعصارة المعدية هي مادة حمضية قوية. أشعر بدفقة منها في آخر الحَلْق عندما أشعر بالخوف أو الغضب، وتتسبّب في شعورٍ بحُرقة شديدة. هناك مسمًّى طبيٌّ لمشكلة الصِّمام هذه، إلا إن إجراء عملية جراحية أمرٌ قاسٍ ومؤلم.

ردّ قائلًا: «لن أخرج، يا ديفي. وأنتَ تعرفُ ذلك.» كنتُ أكره أن يُناديَني أحدٌ بهذا الاسم. لم يكُن أحدٌ يناديني به مطلقًا سوى أخي وكارول فقط. فلا يُوجَد شخص آخَر في حياتي قد عرفَني صغيرًا بما يكفي ليعرف هذا الاسم.

لاحظتُ أنه يرتدي قفّازًا أسود جلديًّا ليُمسِك به كأسَ الويسكي. هزَزتُ رأسي لأصفّي ذهني وتحسّستُ شفتيّ بحذَر، محاولًا استشعارَ ما إذا كانتا متورّمتَين بحقٍّ مثلما كنتُ أشعر. بدا وكأنّ جانبًا كاملًا من وجهي يخص شخصًا آخَر. فلم أستطع استخدامَه في أي شيءٍ سوى النظر إليه وحَسْب.

قال مايكل: «لا أريد القيام بهذا، يا ديفي، أريدكَ أن تصدّق هذا.» كانت عيناه تعكسان شعورًا حقيقيًّا بالندم، شعورًا أقرب إلى التعاطُف الوجداني. تضرّعتُ إلى الرب ألا يكون قد أتى إلى هنا ليقتلني.

قلتُ مرتعبًا: «تقوم بماذا؟» حينئذٍ كان السائل الحمضي يتجمّع في فمي، وكان مذاقُه أَمرّ من الخل. تساءلتُ في نفسي ماذا لو بصقتُ هذا السائل في عينَيه. هل سيحرقُه مثلما بدا أنه يحرقُني من الداخل؟

«بما أني أوجِّه لكَ تحذيرًا صغيرًا، يا ديفي. وأتجرّع الويسكي خاصّتك. ها أنا أقول

لكَ اتركها.» بدت نبرتُه أقربَ إلى الاعتذار وهو يقول الجملة الأخيرة.

ردّدتُ ما قاله: «أتركها؟ كارول؟» لم أكن أفكّر بشكل جيد وأنا أرى دمائي على الطاولة أمامي. فلم يكن الدم يكُفّ عن التقطّر من أنفي لدرجة أنه كان بإمكاني أن أرسم به حلقات على السطح الخشبي للطاولة.

«ثمّة شخص، كلانا يعرفه يا ديفي، يعتقد أنها تخشى تركك. وأظن أننا — أنا وأنتَ — نعرف أن هذا غير صحيح. فلستَ من هذا النوع من الرجال، أليس كذلك يا ديفي؟ أنت شخص عاقل لن تضطرّني إلى الإقدام على تصرّف عنيف تجاهك، أليس كذلك؟»

قلتُ: «هي لن تتركني»، ولعل ذلك كان أغبى شيئًا خرج من فمي على الإطلاق. فقد كنتُ سأعرض عليها أن أوصلها إلى منزل دينيس بسيارتي الخاصة إن غادر مايكل. والتفكير في منزله غيّر مسار أفكاري المتصارعة.

تساءلتُ: «وماذا عن زوجته؟ أنا أتذكّرها. ماذا لديها لِتقولَه عن هذا؟»

هز مايكل رأسه، كما لو أن مشاكل العالم تحزنه. وأردف قائلًا: «لقد تركته، يا ديفي. الأوضاع لم تكن على خير ما يُرام منذ فترة، وأظن أن زوجتك كانت القشّة الأخيرة. إنه رجل حُر، يا ديفي. ويؤسفني أن أقول إن هذا ليس في صالحك.»

قلتُ له: «أنت مجنون. لا يُمكِنك أن تطلب من رجل أن يترك زوجته.»

سألني مايكل: «تُرى أين هي في هذه اللحظة يا ديفي؟ وماذا تفعل في ظنك؟ هي ليست قدّيسة، أليس كذلك؟ ما كنت لأود أن أتخيّل ما هي بصدد القيام به الآن، أليس كذلك؟ لو كنتُ مكانك، يا بُني، لتركتُ هذه العاهرة وتخلّصتُ منها غيرَ آسفٍ عليها. ماذا تُريد من امرأة تخلَع ثيابَها بهذه الطريقة؟ لعلّنا نُسدي إليك خدمة صغيرة، إذا فكّرتَ في الأمر. أقصد على المدى الطويل كما تعرف.»

يبدو أن عدم شعوري بالصدمة قد أدهشَه، وجعله يعبس في وجهي قبل أن يملأ الكأس ثانيةً ويسد الزجاجة بغطاء الفلّين. رأيتُ يده تتحرك، ولكن كنتُ بالكاد قد شرعتُ أُخفِض رأسي حين نثر الويسكي في وجهي. تسبّب لي الويسكي في حرقة أسوأ من حرقة ارتجاع السائل الحمضي من معدتي فتأوّهتُ، رافعًا كلتا يديّ. انسابت الدموع من عيني بغزارة، ولا أعرف ما إذا كان هذا بسبب السخونة المتصاعدة مني أم لغضبي الشديد تجاهها نظرًا لما تقترفُه في حقي، ولسماحها لهؤلاء الأشخاص باقتحام حياتنا. لم أستطع

التفكير، وعندما صفعَني مرّة أخرى توسّلتُ إليه مراراً ليكُفّ يدَه عني، متشنجاً من البكاء.

«لقد أسرفتَ في الشراب قليلاً، يا ديفي، وسقَطتَ على الدرَج بالخارج، واصطدم وجهك بالأرض، أو شيء من هذا القبيل. لتكُن هذه إجابتك، يا ديفي، عندما تسألك. لا أريدك أن تُخبِرها بأكاذيب حول اقتحام رجال أغراب مطبخك، هل ستفعل ذلك؟ لن ترغب في محاولة قلبها على صديقها الجديد، صدّقني لن ترغب في هذا. إذا سمعَتْ كارول بأمر مجيئي إلى هنا، فسأريك ما أسمّيه زيارةً ثانية، أتفهَمُني؟ سيكون الأمر أسوأ بكثير، يا ديفي.» هزّ رأسَه ببطء، كما لو أنه يتخيّل المشهد. وأردف قائلاً: «لا تجعلني أعود مرّة أخرى.»

أخذتُ أرتجف عندما غادر المنزل. شربتُ المزيد من الويسكي، وحين عادت إلى المنزل في صباح اليوم التالي كنتُ لا أزال مستيقظاً، وثملاً، وأستشيط غضباً. سمعتُها تصرخ في صدمة عندما رأت الدمار الذي ألحقَه مايكل بوجهي. وقبل أن أستطيع أن أنبس ببِنت شفة، أخذَت تبحث في دولاب الإسعافات الأولية عن مراهم ولصقات طبية.

سألتني وهي تجلس قبالتي: «ماذا حدث؟» وأردفَت قبل أن أتمكّن من التفوّه بكلمة واحدة: «كنتَ تشرب؟ هل سقطتَ؟» تساءلتُ في نفسي ما إذا كان دينيس قد لقّنها السؤال، وأجفلتُ حين تشقّقَت شفتاي وأنا أشرع في الحديث. تردّدتُ طويلاً وأنا أتساءل في نفسي عما سيحدث إذا أرسل مايكل ثانيةً لتثبيت الدرس في ذاكرتي. لم يكُن لديّ خطة آنذاك، لم أكن فهمتُ عالَمهم فهماً كاملاً. فقد كان بعيداً كل البعد عن عالَمي.

قلتُ بهدوء وأنا أراقب ردّ فعلها: «دينيس تانتر.» كانت تربّت على الدم المتخثر من إحدى فتحتَي أنفي ورأيتُ التوتّر بادياً على ملامحها. اختفَى من عينَيها بريق الاهتمام الحاني والشفقة التي كانت تُغدِقُني بها. ذهب كل شيء أدراج الرياح.

سألتني: «ماذا تقصد؟» وفجأةً انتابني شعور بالخوف من أن الفتور الذي اعتراها كان موجّهاً لي، وأنها لم تعُد تهتمّ لأمري.

«لقد أرسل إليّ حارسه بينما كنتِ تقضين ليلتَك الماضية في الخارج. جاء ليُلقّن الزوجَ درساً صغيراً كما تعرفين، أليس كذلك؟ بينما كنتِ غارقةً في أحضان مخدومه. كان يُحذّرني، يا كارول، كان يُطلِق تهديداته في «بيتِنا».» سمعتُ رعشةً في صوتي فسكتُّ قبل أن يستثير الشرابُ الدمع في مقلتي.

نظرتُ إلى يدَيها ورأيتُهما ترتعشان. لم أجد بداخلي أدنى ذرة تعاطُف تجاهها.

«هذا ما جلَبتِه على هذا البيت، يا كارول. هذا ما اقترفته في حقّي الليلة الماضية، يا كارول.»

لاحظتُ أن وجهَها شحبَ بشدة، كما لو أنني صفعتُها. كانت لا تزال ممسكةً بمنديل ورقيٍّ مبلّل مخضّب بالدماء. رأيتُ يدَها تتحرّك ثانيةً لتُربّت على وجهي فأبعدتُها عني بقوة. لم أكُن أعتقد أن بإمكاني أن أتحمّل الأمرَ إذا تصرّفتُ وكأن شيئًا لم يحدث. أردتُ أن أناقش الأمر بلا مواربة.

انتصبَت واقفةً آنذاك وأخرجت لسانها لتتحسّس أعلى شفتها العلوية. دائمًا تفعل هذا عندما تكون متوترةً حقًا، واستحسنتُ ذلك. فوقفتُ أنا أيضًا لمواجهتها، وفجأةً فقدتُ الرغبة في الشجار. لم أستطع تحمّل الجدال، ولم أستطع تحمّل ترديد الكلام نفسه مرّة أخرى. كان هذا يفوقُ قدرتي على الاحتمال بعد كل ما مررتُ به الليلة الماضية. لقد قلتُ هذا الكلام آلافَ المرات وحسمتُ الجدال لصالحي مرارًا وتكرارًا. لم أكُن بحاجة إلى قوله مرّة أخرى صراحةً في وجهها. لقد كانت تعرفُ كل شيء.

«أَصلِحي الأمر يا كارول، فحسب. لم أعُد أهتم بما يحدث. تدبّري الأمر بمعرفتك فحسب.»

أومأت برأسها وهي تجزّ على شفتَيها بشدة لدرجة أن الدماء تلاشت منهما وبهت لونُهما. لم أرَها ترتعش من قبلُ هكذا، والمثير للسخرية أنني وجدتُ هذا مُبهجًا، لدرجة أنني تقافزتُ على السلم صاعدًا إلى غرفة النوم. وقبل أن تفتح صنبور الدش لتأخذ حمّامًا، كنتُ قد استغرقتُ في سُبات عميق.

الفصل الرابع

كانت كارول في موقف عصيب بالطبع وهي تراني جالسًا وأنفي يقطُر دمًا. الحقيقة شيءٌ غريب، في حال إذا لم تكُن قد اضطُررتَ مطلقًا إلى تأمُّل تقلُّباتها وتحوُّلاتها. لا يهمُّ مدى السوء الذي وصَل إليه أمرٌ ما. فإذا لم تُقر بما يحدث، وإذا لم «تُصرِّح به بصوت عالٍ»، فمن الممكن أن يَطويَه النسيان. يُمكِن التعامل معه. ويُمكِن تجاهله. أتذكّر أوّل مرة سمعتُ أحدًا يمزح بخصوص «الفيل في الغرفة». كان يقصد به مشكلةً ما يحاول الجميع تجاهُلها، ولكن مَن ذا الذي يستطيع أن يتجاهل فيلًا؟ صدِّقني حين أقولُ لك إنكَ بعد فترة تجد نفسك تعلّق ملابسك على خرطومه كما لو أنه صار قطعة أثاث. يمكنك أن تعتادَ أيّ شيء، وما دُمتَ لم تَلقَ حتفَك فعليًا، فكلُّ ألَم إلى زوال. كل ألَم إلى زوال. فكّر في هذا في المرة التالية التي تظن أنك لا تستطيع تحمُّل شيء ما. فكّر فيّ. وإذا لم تسأل عن واقعة بوبي بنريث، فإنها تندرج دائمًا تحت بند حادث. وحتى إن كنتُ «تعرف» الحقيقة، فأنت لا تُجبِر الكلمات على الخروج إلى العلَن.

ستتفهم أن كارول لم تَستطِع إيقاظي، وتُحطني بذراعَيها وتُعلِن أن علاقتَها بدينيس تانتر قد انتهت. إنه الشيءُ الذي لم نعُد نذكُره من قريب أو بعيد على أيّ حال. كان من المفترض ألا أشكّك في حقيقة أنها تسندُ رأسَها على وسادتي.

لم أكُن في حالة مزاجية جيدة؛ ربما لأنني عندما استيقظتُ، شعرتُ أن إحدى أسناني تتداعى. لا بد أن عشرين عامًا قد مرّت منذ وجدتُ نفسي أعبث بلساني في سنٍّ مُخلخَلة، ولم تتحسّن حالَتي المزاجية. لقد أحضرتَه إلى مطبخ بيتنا. كانت القواعد القديمة عديمة الفائدة إلى أن يخرج دينيس تانتر من حياتنا.

شئنا أم أبينا، ثمّة أشياء معيّنة كان يجب قولها، بغض النظر عن مدى كراهيتي للقيام بذلك. اغتسلتُ بحرص، متفحصًا الكدمات في مرآة الحمّام الطويلة. لم يكُن مظهري يُوحي بالثقة. وعلى الرغم من أنني شعرتُ بالغضب، بدا عليّ الخوف. وكان أسوأ ما في الأمر كله حقيقة أنها لم تعُد إلى المنزل طَوال فترة ما بعد الظهيرة.

بدأتُ أتخيّل أنها قد واجهَت دينيس وازدادت حدّة الغضب بينهما. وذهب خيالي بعيدًا

بعض الشيء لبُرهة. واتصلتُ بها في العمل؛ لأنني كان عليّ أن أتصلَ بأحد وأسأل عن مكانها، على الرغم من أنني أكره القيام بذلك. ففي كل مرة، أستطيع أن أتخيّل ابتسامتهم الخبيثة تعلو وجوههم على الطرف الآخر من الهاتف. كنتُ الزوج الذي لا يستطيع العثور على زوجته. هل سبق لك أن لاحظتَ من قبلُ أن بإمكانك سماع ابتسامة أحدهم على الهاتف؟ إذا قلت الكلمات ذاتها مرتين، ولكن ابتسمتُ في المرة الثانية، يُمكنك أن تسمع الاختلاف. وأنت عندما تسأل عن مكان زوجتك، لا ترغب في سماع ذلك الاختلاف. فهذا يحُث عقلك على العمل سريعًا بالدرجة الكافية لإيلامك.

أخذَت كارول إجازةً من العمل في فترة ما بعد الظهيرة، وكان هناك شيء ما في نبرة صوت الفتاة المُجيبة على الهاتف أوحى لي بأنها تستمتع بحقيقة أنني لم أكُن أعرف ذلك. كان عليّ أن أجاهد لأحافظ على صوتي ثابتًا وهادئًا بينما أُعيد سمّاعة الهاتف إلى مكانها، متشبّثًا بها بقوة كافية جعلَت يدي تهتز. وعندما وضعتُها، رنّ جرس الهاتف، مما جعلني أقفز من مكاني.

استطعت أن أسمع أنفاس كارول، متسارعة ومتقطّعة.

قالت دون أن تتفوّه بكلمة الترحيب المعتادة: «قلتُ لدينيس تانتر أن يتركنا وشأننا. لقد رحل.»

سألتُها وأنا أُلصِق سماعة الهاتف إلى أذني كما لو أن بإمكاني أن أقرّبها مني أكثر وهي على الطرف الآخر من الهاتف: «ولكن ماذا عنك؟»

أجابت: «أنا بحاجة إلى قضاء بضعة أيام بعيدًا، يا ديفي. العمل يتراكم عليّ وأحتاج إلى استراحة، هدنة لالتقاط الأنفاس.»

سألتها وأنا أعرف أنها لن تُخبرني: «أين ستذهبين؟» لم تكُن الإجابة مهمة. ما كان يهمّ حقًا أن ذاك اللعين دينيس تانتر قد فقدَها وغمرَتني فرحة جامحة. كان بإمكاني أن أسمع الإرهاق يقطرُ من صوتها. لو كانت ستذهب إليه، لبدَت عليها تلك الإثارةُ الشديدة التي كانت تميّز بداية جميع علاقاتها الغرامية. ليتركنا وشأننا، هكذا قالتها بصيغة «الجمع». كانت هناك أوقاتٌ أشعر فيها بالحُب تجاهها حقًا، بغضّ النظر عن المشاعر الأخرى التي تنتابني. ألصقتُ السمّاعة بشدة إلى أذني لدرجة أنها بدأَت تُؤلِمني.

قالت: «أنا بحاجة إلى قضاء بضعة أيام بعيدًا عن هنا وحسب.» انتظرتُ ريثما تستفيض في الحديث. وتساءلتُ في نفسي ما إذا كانت قد حزَمَت أمتعتَها. ربما لو أنني كنتُ قد استغرقت الوقت لإلقاء نظرة على خزانة الحمّام، لأدركتُ أن هذه المكالمة

الهاتفية آتية.

قلتُ بلطف: «لا تبتعدي كثيراً.» كنتُ أحيانًا أحادثها كما لو أنني أُحادث فرسًا حَرُونًا، ولكن لم يبدُ أنها تُلقي بالًا. أردتُ أن أقول لها إنني أحبها، وأردتُ أن أعبِّر عن الشعور الدافئ المفاجئ الذي جاش في صدري نحوها عندما سمعتُ صوتها. ولأول مرة، لم أستطع أن أتفوّه بالكلمات بسهولة مثلما هي دائمًا. لم تفعل هي ذلك قط، ورغم أنني كنتُ أخبر نفسي بأن المشاعر جلية في كل كلمة ونظرة تُسديها إليّ، إلا إن النطق بها لا يزال ذا أهمية. لقد تخلّيتُ عن جزء كبير من كرامتي على مَرِّ السنين لدرجة أنني ابتلعتُها وأحرقَتني. لعلّني اكتفيتُ أخيرًا؛ ولهذا السبب طفَح بي الكيل في كل مرة أُضطَر إلى تجرُّع المزيد من الهزيمة، والمزيد من الخزي. تمنّيتُ لوهلة «ألا» تعود ثانيةً. وفي لحظة من الصمت تخلّلَت المكالمة الهاتفية، رأيتُ حياتي تمضي قدمًا بدون الألم والدراما. في نهاية المطاف، ستصير كارول مجرد ذكرى بعيدة لشخص اعتدتُ أن أكونه. ومشكلة لشخص آخر في المستقبل. تذكّر أن كل ألم إلى زوال، حتى الذكريات التي ظننتَ أنها ستقتُلك. لعلني أستقل سيارتي وأقودها إلى مكان بعيد وحسب قبل أن تعود هي وأتظاهر بأنني شخص طبيعي لبقية حياتي. بل ربما أكون سعيداً وأحيا عيشةً غريبة نوعًا ما حيثُ لا أُضطَر إلى إجراء تحليل دم كل شهر تحسُّبًا أن تكون قد جلَبَت إلى المنزل مرضًا عُضالًا يسلبُني صحّتي بالتدريج. ستكون حياة غريبة بدون خوف، وبدون كراهية، وبدون هوَسي بها.

أعدتُ سمّاعة الهاتف إلى مكانها دون أن أستمع إليها وهي تُودِّعني.

* * *

مكثتُ نحو عشر دقائق جالسًا بمفردي حتى أدركتُ أنني بحاجة إلى الهروب أيضًا. لم أرغب في أن أكون الشخص الذي بقي وانتظر عودتها. لم أرغب في أن أكون بمفردي، وبالتأكيد لم أرغب في الوجود هناك إذا أرسل دينيس لي مايكل مرّة ثانية. كانت تلك هي الفكرة التي دفعتني للتحرُّك في الواقع. كانت قد أخذَت حقيبة السفر الوحيدة التي نملكها، ولكن كانت هناك حقيبة قماشية عتيقة في الخزانة الموجودة فوق السخّان الغاطس، وهكذا دسستُ بضعة أشياء فيها، مضيفًا إليها قطعةً من الصابون وعُلبة نصف ممتلئة من مزيل العرق. لم يكن لديّ مال يجعلني أُربك نفسي باستخراج جواز سفر. كنتُ أفكّر في استقلال القطار المتجه غربًا، ربما لقضاء بضعة أيام في مقاطعة كورنوال. وجدتُ حذائي ذا الرقبة الطويلة ودثّرتُ نفسي في المعطَف، وتحرّكتُ سريعًا، مسيطراً على شعور الذعر المتفاقم بداخلي.

فتحتُ الباب في اللحظة التي أدركتُ فيها أن ثمّة طيفًا يتحرك وراء الزجاج. كنتُ أفكّر في كارول، وعندما انفتح المزلاج أدركتُ أن ثمّة شخصًا ما يقف هناك يسترق النظر إلى الداخل. كان يراقبُني وأنا أتحسّس جيوبي بحثًا عن المفاتيح وأفتح الحقيبة القماشية مرّة تلو الأخرى لأدُسّ في أعماقها غرضًا أخيرًا من أغراضي.

يبدو أنه يتحرك، أو بالأحرى يتحرّكان، بسرعة متباينة. فحين يحاول أحدُهم اقتحام منزل في أحد الأفلام، فمن المرجّح أن يصفع الباب في وجهه. دخل دينيس للتو كما لو كان يلِج إلى منزله، رغم أن تعبيرات وجهه أفصحَت عن رأيه في المكان. اصطدم كتفُه بي ثم دخل مايكل من ورائه، ليضغط بيده اليسرى على صدري ويثبّتني على الحائط دون أدنى عناءٍ من جانبه. ربما كنتُ سأقاوم لو أنهما أعطياني تحذيرًا بسيطًا، إلا إن الأمر جاء على نحو سريع ومباغت للغاية.

عندما اختفى دينيس منسحبًا إلى داخل الردهة، هزّ مايكل رأسَه على نحوٍ أقرب إلى الاعتذار. حينئذٍ استعدتُ جُرأتي بدفعة مفاجئة من الأدرينالين تدفّقَت بفعل شعوري بالخوف، نازعًا أصابعه لإرخاء قبضته عليّ. كنتُ على مقربة شديدة من الحرية المتمثّلة في القطعة الصغيرة الظاهرة من الحديقة بالخارج لدرجة أنني ما كنتُ لأحتمل فكرة إغلاق الباب والبقاء معهما عالقًا بالداخل. سحبَني مايكل مرّة أخرى من عند مدخل الباب المفتوح وأغلَقه بذراعه الأخرى، مُومئًا لنفسه حين سمع طقطقة المزلاج. واشتدّت ظُلمة الردهة بوقوفه هناك حاجبًا الضوء.

تساءل دينيس وهو يخرج عائدًا من المطبخ: «أين هي؟» لم أُحِره جوابًا. لوهلة شعرتُ أن غرابة وجوده في منزلي قد فاقت كل حدود الاحتمال. كانت آخر مرة رأيتُه فيها في حفل رأس السنة الجديدة وسط البالونات بصحبة رجل اسكتلندي. تذكّرتُ وجهه، إلا إن وقوفه هنا وتحدّثه معي كما لو أننا نعرف أحدنا الآخر كان أمرًا يفوق الواقع.

قلتُ: «سأتصل بالشرطة.»

رفع دينيس حاجبَيه في شيء يقارب الدهشة.

ردّ قائلًا: «قال لي مايكل إنك لا تخفٌ بسهولة. وعن نفسي لا أرى ذلك.» استرقتُ نظرةً جانبيةً سريعة نحو مايكل، إلا إن وجهَه خلا من أي تعبير. لا ثرثرة من جانبه، أو مطالبات بتقديم الويسكي إليه. فقد كان يلتزم بآداب العمل والاحترافية في حضرة هذا الرجل العظيم.

لم أنبس ببِنت شَفة؛ ولذا أعطى دينيس إشارته ليُؤتَى بي إليه. وجدتُ نفسي أُقتاد إلى مطبخي مرّة أخرى. انتابَني شعورٌ بالغثيان من أنهما بصدَد الإجهاز عليّ. ولوهلة تخيّلتُ كارول وقد عادت بعد بضعة أيام، ويُخجِلني أن أقول إنني استمتعتُ بفكرة شعور الذّنب الذي سينتابُها.

كانت زجاجة الويسكي لا تزال حيث تركتُها، فصب دينيس لنفسه منها كأسًا، مُحتسيًا رشفةً منها بينما كان يُواجهني. أدركتُ أنه كان بإمكاني أن أدُس به سُمًّا، لو أنني كنتُ خطّطتُ للأمر مسبقًا، كما في إحدى روايات أجاثا كريستي. ولكن، للأمانة، من أين لي أن أحصُل على سُمّ زُعاف؟ لا بد أنه ذاق مُبيد الأعشاب، أليس كذلك؟ المشكلة في مثل هذه الأفعال أنها تئولُ بك في النهاية إلى المكوث وراء القضبان مدى الحياة. ولم أكن لأسمح لهذا أن يحدث قَط مهما كان المنحى الذي تتخذه الأمور.

قرع مايكل أصابعه أمام أنفي. وقال وهو يقرعُها: «انتبه وأجب عن السؤال.»

شرَد ذهني مرّة أخرى، وكأنه يفضّل البقاء في حالة من التشتّت والانفصال على مواجهة الواقع الفعلي المتمثل في انتظار مقتلي.

قلتُ: «لا أعرف إلى أين ذهبتُ.» كنت أستمع دون انتباه كامل وكان هذا ما طلَبه دينيس. أضفتُ قائلًا: «لقد رحلتُ.» أردتُ أن أجيب عن أسئلتهما. أردتُ أن يظل الحوار متواصلًا اليوم بأكمله إذا راقَ لهما ذلك. لم أرغب في تخيُّل ما سيحدث عندما ينقطع الحديث.

قال دينيس وهو يسحَب الكرسي الآخر ويجلس عليه: «أخبِرني، يا ديفيد. أخبِرني ما الذي يجعل زوجتك لا تتحمّل التفكير في تركك؟»

أطرفتُ بعيني، محاولًا أن أبدو وكأنني أفكّر في سؤاله بشيء من الجدية. كانت كارول الوحيدة التي من شأنها أن تعثُر عليّ، وربما لن تعود قبل أيام.

أجبتُه: «لا أعرف. إنها تُحبّني.» لم يكُن دينيس رجلًا بهيّ الطّلعة للتحديق فيه. احتُقنَت بشرتُه واختفى من عينيه البريق وبدا فيهما الفتور. برز النمش في وجهه الشاحب ذي العظام البارزة، ولوهلة لم أستطع أن أرى شيئًا سواه، وكأن شبكة من النقاط قد لاحت على وجهه.

قال لي فجأةً، بصوت أقرب إلى الهمس: «هل تتعامل معها بوحشية، يا ديفي؟» استطعت أن أشعر بتوتّره بينما كان يراقبني. كان يريد فعلًا أن يعرف. فذلك الأبلَه

المسكين لم يفهَمْها قَط.

قلتُ وأنا أنحني مُقترِبًا منه أكثر: «إنها الشيء الوحيد الذي أقدِّره في الحياة.» كانت حقيقة هذا الأمر جليّة بشكل أو آخَر، فتململ دينيس في جلسته. تساءلتُ في نفسي كيف تبدو زوجته بلحمها وشحمها. هل كان لديه أطفال صُهْب بوجوه بارزة العظام وضحكة جامدة؟ كانت كارول أشبه بقوة من قوى الطبيعة مقارنةً بأسرته التقليدية. ولذا، أمكنَني أن أتعاطف، نوعًا ما مع ما كان يمُر به.

قلتُ له بينما كان يحدِّق بي: «يجبُ أن تبتعد عن هذه الفوضى. إنها بحاجة إليّ، ولذا أبقى. وأي شيءٍ آخر، أو بالأحرى أي «شخصٍ» آخَر، ليس إلا غريبًا.»

استطعتُ أن أراه يُعاني من جدال داخلي. فقد كان يهتزّ فعليًا من فَرْط التوتّر والانزعاج وتجرّع كأس الويسكي الخالي من السم دفعة واحدة دون أن يتذوّقه فيما يبدو. وسمعتُ الزجاجة تصطدم بالكأس بينما كان يُعيد مَلْأها. لم ترُق لي فكرة أن يسكر في مطبخي.

استدار دينيس في مقعده. وسأل: «هل ترتدي قفّازًا، يا مايكل؟»

تطلّعتُ لأرى أن مايكل يرتدي واحدًا فعلًا. وكان لدى دينيس زوجٌ من القفازات أيضًا، وانتابَني إحساسٌ مفاجئ بالسقوط من ارتفاع كبير. لا أظن أنني سمعتُ شيئًا مخيفًا أكثر من هذا السؤال العابر. وعندما استدار دينيس نحوي، اضطررتُ إلى عقد يديّ معًا على الطاولة لمنعهما من الارتعاش.

«يُمكِنني أن أجعلك تختفي، يا ديفيد. ولا تجد هي زوجًا في المنزل تعود إليه، أتفهمني؟ ربما يُفسح المجال آنذاك أمام رجل آخر ليس طُفيليًا غريب الأطوار. أنت حتى لا تعمل يا ديفيد، أليس كذلك؟ أنت تجلس هنا وتنفق الأموال التي تكسبها من أجلك. هل يُشعِرك هذا برجولتك، يا ديفيد؟»

قلتُ بتمهّل: «لن تثقَ بك مطلقًا إذا اختفيتُ. إنها تعلم بأمر المرة الأولى التي أرسلت فيها مايكل. وستعرف أنك الفاعل.» أعجبني المسار الذي اتخذه الأمر وبدأت أتحمّس للفكرة. «ستكرهك إذا أصبتني ولو بكَدْمة، يا سيد تانتر. يجب أن تستوعب هذا. لا أستطيع أن أرى نهاية سعيدة لما يحدث هنا إلا إذا غادرت.»

جلس مرّة أخرى وبدا أنه يفكِّر في هذا الأمر لبُرهة.

«فهمتُ ما تقصده، يا مايك. إنه يجلس هادئًا متماسكًا رغم جسَده المعلّق في

الهواء.» رأيتُ مايكل يبتسم وراء ظهر دينيس. لم أكُن واثقًا تمامًا من أنني فهمتُ المقصود من العبارة بالمناسبة. وإذا كان المقصود منها الضعف، فقد أصابت كبد الحقيقة.

وقف دينيس، وشعرتُ ببارقة أمل مفاجئ بأنه سيعمل بنصيحتي. ثم أومأ إليّ.

«أنت رجلٌ حقير ومريض، يا ديفيد. لقد حوّلتَ امرأةً رائعة إلى امرأة ملتوية وهشّة ... أنا لا أعرف ماهيّتها. ربما تكون محقًا بخصوص قتلك، أو لعله الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه لتتخلص منك وتُميطَك عن طريقها، أتفهم ما أقصده؟ إن مجرد رؤيتك جالسًا هناك بهذه الغطرسة البادية عليك يُثير حنقي، يا ديفيد. أعتقد أنك تُسيطِر عليها، مثل أولئك الرجال الذين يضربون زوجاتهم ومع ذلك يعُدن إليهم بشكل أو آخَر. أنا لا أفهم هذا. ولكني لستُ من نوعية الأشخاص الذين يبتعدون عن الأشياء التي لا يفهمونها، يا ديفيد. أنا رجلٌ «عنيد».»

قالها كما لو أنه شيء قاله من قبلُ مئات المرات، كما لو كان فخوراً بذلك. ما كان بيدي حيلة سوى أن أُحملِق فيه بدون أي تعبير بينما كان يدور حول مايكل ووقف عند الجهة المقابلة من المطبخ. بدَت الغرفة ضيقة ومكتظّة بينما كان هذان الاثنان يسُدّان الباب.

قال دينيس: «سأبقى لأتفرّج يا مايك، إن كنتَ لا تُمانع.»

سأله مايكل وعيناه في عينيّ: «إلى أي مدًى تريد أن أتوغّل؟»

فكّر دينيس لوهلة.

وأردف يقول: «أودّ أن تسنح لي المحاولة مرّة أخرى عندما تعود كارول؛ لذا اجعل كل شيء من تحت ملابسه، أفهمتَ؟ لقِّنه درسًا. اكسر له إصبعَين، واجعل باقي الإصابات مخفيّة.»

حينئذٍ بدأتُ في الصراخ مستغيثًا، رغم أنني على علم بأن جميع الجيران سيكونون في العمل. لم يكُن هناك من يُجيرُني.

الفصل الخامس

تمكّنتُ من الوصول وحدي إلى مستشفى برايتون العامة لتجبير يدي. ظننتُ أنهم سيسألونني جميع أنواع الأسئلة الصعبة، إلا إنهم تركوني أنتظرُ ستّ ساعات فقط ليُخبروني في النهاية أن الأشعة السينية قد أظهرت وجود كسر في إصبعَين. لم أُبالِ بذلك، رغم أن أول شيء قلتُه للممرِّضة في مكتب الاستقبال: «لديّ إصبعان مكسوران». أعطوني مسكّنات، ولطالما أعجبني المبنى. كان مبنى إصلاحية للأحداث في العصر الفيكتوري، وأعجبني هذا الحسّ التاريخي للمبنى. على أي حال، كانت الأجواء دافئة من الداخل وكانت هناك ماكينة لإعداد أكواب شاي برتقالي اللون. وبعد كل المتاعب التي لاقيتُها للوصول إلى هناك، استغلَلتُ الأمر أفضل استغلال. فالقيادة بيد واحدة ليست مشكلة؛ أما «تبديل السرعات» والقيادة في آن واحد، فهو كابوس حقيقي.

أعتقد أنه لو عاملني أحدُهم بلطف، لربما طلبت منه المساعدة، أو لعلّني توجّهتُ إلى الشرطة. ولكن كان الأطباء في غاية الانشغال ولم يكُن لديهم أي رغبة في اتخاذ أي إجراء سوى إلقاء نظرة سريعة على شخص يُعاني من نوعية المشاكل الصحية التي أعانيها. حتى الممرِّضة التي ضمّدَت الجرح لم تسألني كيف أُصِبت. كانت مضطربة ومُتعَبة يتصبّب منها خطٌّ لامع من العَرَق عند نقطة التقاء شعرها بجبهتها. وجدتُني أحدِّق بتركيز على هذا الخط بينما كانت تؤدّي عملها. لا بد أن قضاء يومك مع أناس يتألمون أمر غريب حقًا. يقولون إن رجال الشرطة يظنّون أن جميع الناس مجرمون. وأتساءل ما إذا كان الأطباء يظنّون أيضًا أن جميع الناس عبارة عن قنبلة موقوتة من الجلد والعظام تنتظرُ الانفجار في وجوههم. بينما كنتُ أجلس هناك، رأيتُ بعض الدماء تُلوّث الأرضية المكسُوّة بالمُشمّع، وما منعني من التفكير في مراسلة الجرائد المحلية سوى أنها قد أُزيلَت.

أظن أنني فكّرتُ آنذاك في مراسلة أخي. كنتُ أشعر بالوهن قليلًا بسبب المسكّنات وكان معي وصفة طبية بالمزيد منها. شعرت بارتجاع بسيط للسائل الحمضي في فمي، ولكن عندما ابتلعتُه بقي بالأسفل، وهو ما أشعرني بالارتياح. لم أستطع العودة إلى منزلي ولم أستطع العثور على مفاتيح سيارتي. كنتُ أعلم أنني قُدتُ السيارة إلى المستشفى، إلا أن تلك المفاتيح اللعينة فُقدَت في مكان ما بين مكتب الاستقبال وغرفة

الانتظار وغرفة انتظار الأشعة السينية وجهاز الأشعة السينية وغرفة الممرّضات وغيرها من الأماكن التي أرسلوني إليها. ولم أستطع النهوض والبدء في البحث عنها بنفسي.

كم من مرّة رددّتُ عبارة: «معذرة، يا آنسة، هل رأيت سلسلة مفاتيح سيارة؟ كنتُ هنا قبل دقيقة واحدة فقط.» لو أنها ضاعت، فلسوف أعودُ إلى المنزل سيراً على الأقدام أو أتصلُ بشركة خدمات السيارات وأدّعي أنّني فتاة شابة بمُفردَها لكي يُهرَعوا إلى مساعدتي. فلقد تجاوزت الاهتمام بأي شيء.

في الصيدلية الموجودة بالطابق الأرضي، صرفتُ علبة الحبوب المسكّنة الموجودة في الوصفة الطبية واشتريتُ أوراقًا وطوابعَ ومظاريف من محلٍّ صغير لبيع الصحف في إطار المكان الخدمي المخصّص للمرضى نفسه. المستشفى «مكان كئيب». فقد رأيتُ طفلًا أصلع مصابًا بالسرطان وتساءلتُ في نفسي كيف تمُرُّ الأيام على هؤلاء المرضى. فالوقت يمُرُّ ببطء شديد هناك.

لم أستطع إرسال الخطاب الأول الذي كتبتُه. كان واحداً من تلك الخطابات التي تكتبها لتُصفّي ذهنك من كل شيء. كان خطاباً غاضباً وأكثرتُ فيه من السب واللعن. ولو أنني كنت أرسلتُه، لربما أودَعَني أخي قسم الأمراض العقلية والنفسية بمستشفى برايتون العام. ثمّة فارق حقيقي بين أن تدخل بنفسك وأن يُودِعَك أحدهم فيه. وبغض النظر عن المعاملة التي تتلقّاها، فالشيء الأساسي هو أن بإمكانك أن ترحل عندما ترى الممرّضات يُقيّدن أحدهم بعنف بينما يصرخ ويتقيأ دمًا. أما إذا جرى إيداعك وإرسالك إلى هناك رغمًا عنك، حتى وإن كان من أجل تشخيص هيّن مثل الاكتئاب، ووضعك تحت المراقبة لمنعك من الانتحار، فلا يمكنك الخروج؛ فأنت داخل المنظومة وهم لا يُعيرون ما تشعر به أو تحتاج إليه أدنى اهتمام.

مزّقتُ الخطابَ قطعًا صغيرة خشية أن يجد أحدهم الوقت لتجميعه ولصقه مرّة أخرى أثناء تفريغ سلال القمامة الخاصة بالمستشفى. ورغم أنني كنتُ أعلم أنها فكرة غبية، فقد حرصتُ على وضع القصاصات في سلّتَين منفصلتين.

حرصتُ على أن تكون المحاولة الثانية لكتابة الخطاب قصيرة. ذكرتُ فيه أنني أواجه مشكلة مع كارول ولا أعرف كيف أتصرّف. إذا سألتَني عما كنتُ آمله حينئذٍ، فلن يكون بإمكاني أن أخبرك على الأرجح. لم أستطع التعامل مع دينيس تانتر ولم أستطع رؤية مَخْرج من هذا الموقف. وهذا هو الوقت المناسب لطلب المساعدة. أنت لا تعرف كيف سيكون شكل هذه المساعدة. وإذا كنتَ تعرف، لَأمكَنَك على الأرجح أن تُنجِز الأمر بمفردك. وضعتُ الخطاب في صندوق البريد الخاص بالمستشفى، ومضيتُ

في طريقي بثبات دون أن ألتفت ورائي. قُضي الأمر. إما سيأتي وإما لن يأتي.

بعد مرور يومَين، ترك لي رسالةً على جهاز الردّ الآلي يقول فيها إنه في الطريق. مجرد رسالة صوتية مُسجّلة لمدة عشر ثوانٍ استقبلتُها وأنا جالس مُحملِقًا في جهاز الرد الآلي. أعاد لي صوته كثيراً من الذكريات البغيضة. أخرجتُ من حوزَتي زجاجة نبيذ لافرويج ممتلئة حتى نصفها لتُبقيَني دافئًا، وارتديتُ أفضل بِذلَة سوداء لديّ وكتبتُ خطابًا إلى كارول. تركتُه على طاولة المطبخ حيث ستراه إذا عادت إلى المنزل. بعد ذلك، توجّهتُ إلى الشاطئ، وعندما حل الظلام وقفتُ على حافة البحر الأسود، متطلعًا إلى الأمام. انتهيتُ من شرب الويسكي واغترفتُ شَربة من الماء المالح لتكسر مذاقه. كانت شَربة مَريرة تمامًا كشعوري، وحينئذٍ كفَفتُ عن الشعور بالبرودة وتوغّلتُ في المياه.

لا أعرف كم مَرّ من الوقت وأنا أقفُ هناك قبل أن يعثُر أخي عليّ. لقد قرأ الخطاب الذي تركتُه على الطاولة. وعلمتُ أنه سيفعل ذلك.

* * *

أخبرتُه بكل شيء بينما كنّا نسير عائدَين عبر شوارع برايتون المظلمة. اشتدّت الرياح وكنت أرتجف من البرد فأعطاني معطفه. كانت تفوح منه رائحة السيجار وكولونيا ما بعد الحلاقة الخاصة به، وكانت نوعًا لا أعرفه. كان معطفًا أفضل من أيِّ معطف امتلكتُه على الإطلاق، وكان بإمكاني أن أشعر بثقله ونعومته كشعوري باللمسات الأولى لإثم كبير.

لم يعلّق على شيء أثناء سيرنا معًا إلا بالكاد، واكتفَى فقط بطرح أسئلة متفرّقة عن دينيس أو مايكل، وانطباعاتي عنهما. اضطُررتُ إلى إخباره بأكثر مما أرغب عن كارول وإلا بدا الأمرُ تافهًا. خرجَت الاعترافاتُ من فمي على دفعات، وما إن نظر إليّ حتى هزّ رأسَه في بطءٍ باندهاش.

قال: «وتريد استعادتَها؟»

أخبرتُه بكل شيء استطعتُ تذكّره، أي شيء قد يُساعِده على فهم الرجلين اللذين دخلا حياتي ودفعاني إلى حافة اليأس. حاولتُ ألا يظن أنني أفكّر في ارتكاب جريمة قتل، أو على الأقل، السماح بارتكاب جريمة قتل بالنيابة عني. كنتُ أُريدُ إخراجهما من حياتي، وفي لحظةٍ ما توقّفتُ عن الاهتمام بكيفية إنجاز هذا الأمر أثناء الاعتداء الثاني عليّ في

مطبخي. ربما حدث هذا حين التوت إصبعي الأولى لمدًى كان كافيًا لتنكسر. فالمهانة تُثير حفيظة الرجال، ألم تعلم ذلك؟ إذا أردتَ أن ترى نوبة غضب جام، حاول أن تُهين رجلًا، وبالأخص لو حدث ذلك على الملأ. حاوِل أن تُثير خوف أحدهم ثم اسخر منه.

كنتُ أشعر ببرد شديد حالَ دون الاستمتاع بالحديث مع أخي، ولكنّني رأيتُ أنه مُستمتِع. وحتى بدون معطفه بدا أنه مستمتع أيّما استمتاع بهبوب الرياح على البحر. فقد كان يحرّك يدَيه بحركات حادة قاطعة عندما كان يتحدّث، وضَحِك على وصفي لمايكل، وجعلَني أُعيد التفاصيل لكي يتسنّى له التعرّف على أيٍّ منهما فور رؤيته.

لم أدرك مقدار التخطيط الذي سيتطلّبه الأمر لمحو هذين الرجلين من على وجه الأرض. كان أخي الورقة الإضافية الوحيدة لديّ، ميزتي الوحيدة التي لا يعرفها أحد. أوقف السيارة على بُعد ميل من المنزل وسرنا معًا. لم يكُن لدى أحد أدنى علم بمكانه ولن يتمكّن أحدٌ قَط من ربطه بأي شيء حدث. كان سيستمتع بوقته بضعة أيام على الأقل. بلا أي شعور بالذنب، ولا وازع من ضمير.

جلسنا إلى طاولة المطبخ وأخذ يسبٌ ويلعَن حين أخبرتُه بأنه لم يتبقّ في المنزل أيٌ شيء لاحتسائه. فقد ألقيتُ بزجاجة نبيذ لافرويج الفارغة في البحر قبل أن يأتي، لتنثر الماء في مخيّلتي على نحو أعظم مما أحدثته على أرض الواقع.

قال وهو يفكّر بصوت عالٍ: «لقد رأيت مايكل بمفرده، إذَن فهما ليسا متلازمين كما كنتُ أظن. سيكون من الأسهل عليّ أن أنال من كلٍّ منهما على حِدَة.»

«ولكن إذا أخطأتَ وتم ضبطُك، فسيقتلني الناجي منهما.»

قال وفي عينَيه لمعة غريبة: «أو ستقتُله أنت، أخي الصغير. لا تظُن أنني لا أعرفك.» تذكّرتُه وهو يضرب الرجل الفاقد الوعي خارج الملهى الليلي في كامدن فارتجفتُ خوفًا.

وعَدتُه قائلًا: «سأُحاوِل.» فأومأ برأسه.

«ستفعلها لكي تُنقذ كارول، أعلم أنك ستفعلها.»

لم يعجبني ذكرُه لسيرتها. أردتُ أن أفكّر في المشكلة نفسها، لا في تبعاتها وما سيحدث بعدها. لم أكُن أريدها أن تعرف شيئًا عن الأمر. سيُعثر على دينيس في مكان ما وسيُعزَى موتُه إلى أحد شركائه المزعجين في العمل. ولن يشك أحد بي ولن يعرف أحد أنّ أخي كان موجودًا في برايتون. أردت أن يكون التنفيذ سلِسًا ونظيفًا.

«دعني أذكّرك أن الطريقة الوحيدة لإحضاره إلى أي مكان يمكننا تجهيزه هي إخباره بأن كارول تريد مقابلته. لتكن ساحة عامة لانتظار السيارات ليلًا. وعندما يملّ من الانتظار، سيخرج إلى الظلام وسأستعمل العنف الشديد معه لعشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية.» بدا مستمتعًا بالفكرة، واضطررت إلى ابتلاع ريقي بصعوبة لتهدئة الشعور بالحرقان الذي تزايد تحت لساني.

«إنها مخاطرة كبيرة. لا يمكنك أن تتوقع متى سيخرج من السيارة حيث قد تكون هناك أسرة واقفة إلى جوار سيارته، أو مجموعة من السكارى يقضون حاجتهم عند المزراب، ويكونون شهودًا عليك. حتى إذا تمكّنتَ من ... إيقاف أحدهم، فسيصرخ الآخَر أو يركض. لن نُفلِت بفعلتنا هذه أبدًا. من الجنون أن تظن أن بإمكانك ...»

قاطعني باقتضاب قائلًا: «حسنًا، يا ديفي، لا تنفعل. اذهب إلى متجر الخمور قبل أن يُغلق أبوابَه واشترِ لي مشروبًا أقوى من العصير البرتقالي الفوّار. حينئذٍ ربما أجد الأفكار تتدفّق.» ابتسم حينها ببرود شديد وثقة في النفس لدرجة جعلتني أشعر بالغثيان. قال وهو يتفقّد المطبخ من حوله: «من الأفضل أن نفعلها هنا، في هذا المنزل، على أي حال. سنأتي بهما إلى حيث يُمكننا التحكّم في الأمور. إنه رجل يستأجر بلطجيًا ويكسر الأصابع. ستُفلت من العقوبة بحجة الدفاع عن النفس، ولن يعرفوا أبدًا أنه كان هناك شخص يعاونك في ذلك.»

فجأةً سألته: «هل ترتدي قفّازًا؟» وكان يرتدي واحدًا بالفعل.

«أحسنت، أيها الفتى ديفي. ها أنت تفكّر في الاتجاه الصحيح الآن.»

انفتح البابُ الأمامي، فهببتُ واقفًا في فزع وخوف. لم يتحرّك أخي قيد أُنملة، وعندما رأى الواقف عند الباب ابتسم وحسب، وضاقت عيناه لينعكس فيهما الاهتمام.

قال: «أهلًا، عزيزتي كارول. هل أحضرتِ معكِ أي شيء لنشربه؟»

* * *

رأيتُها ترمقني بنظرة مترددة ثم نقلَت بصرها إليه، متسائلةً عما كنّا نناقشه. بدا عليها الارتياح وكانت قد قصّت شعرها. كانت هناك حقيبة جديدة معلّقة على كتفها، وبَدَت جميلة كعهدها دومًا. ولاحظتُ حين أطرقتُ بنظري إلى الأرض أنها ترتدي حذاءً جديدًا أيضًا.

«من الرائع دومًا استقبال أحد أفراد عائلة ديفي»، قالتها ببرود، وقد بدا في عينيها

أنها كذبة صريحة. كان بمقدوري أن أشعر بالكراهية بينهما، وتساءلتُ في نفسي عما إذا كانا سيتشاجران إذا تركتُهما لإحضار الويسكي. أدركتُ أنه سيكون هناك على الأقل شاهد واحد على وجود أخي في برايتون، وشعرت بانقباض في معدتي. لماذا لم تقضِ بضعة أيام أخرى لاكتشاف الطفلة بداخلها أو أيًا ما كانت تفعلُه بحق الجحيم في هذه الرحلات الخلوية؟

قالت وهي تتظاهر بالتثاؤب: «من الأفضل أن آوي إلى الفراش. أراكما غدًا.» لم يرفع أخي بصره إليها، وعندما ذهبَت أدركتُ أنها لم تسألني حتى عن يدي المجبّرة. كنت شبه واثق من أنها لم ترها. لقد توقّعَت كارول أن تجد ترحابًا، ولكنها بدلًا من ذلك وجدتنا، وبدا الأمر ... حسنًا بدا الأمر وكأننا متآمران يُخطّطان لجريمة قتل.

مال أخي إلى الأمام وتحدّث بنبرة لم تتجاوز الهمس. إذ قال: «وجودها هنا سيمثّل مشكلة.» ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

«على أي حال، هذه ليست عملية سرقة بنك، ولا أحتاج دهرًا للتخطيط لها. احرص فقط على عدم وجودها في المكان عندما نأتي بصديقيك مرّة أخرى إلى هذا المطبخ.»

قلتُ بالقَدْر نفسه من الهدوء: «ستُخبر الشرطة بأنك كنتَ هنا.» لم أستطع النظر إليه في عينَيه، ولكن كان يجب أن نضع هذا في الاعتبار. فلن تبحث الشرطة عن رجل وحيد يدافع عن نفسه ضد اثنَين من البلطجية المحترفين الأشرار. وإنما ستبحث عن الشقيق الوحيد لهذا الرجل الذي اختفى من مدينة برايتون بطريقة غامضة في اليوم التالي لمقتل الرجلَين. وعندما رفعتُ بصري إليه، كان وجهه عابسًا، وأخذ يقلّب الأمر في ذهنه مرارًا.

وبعد مرور مدة وأنا أراقبه، قال: «لماذا لا تذهب وتُحضِر ذلك الويسكي اللعين بينما أجلس أنا لأفكّر في الأمر؟»

فذهبتُ.

الفصل السادس

استيقظتُ من نومي فجأة، لأستفيقَ من حلم على ضوضاء أحدثَتها كارول وهي ترتدي ملابسها. كانت أول شيء رأته عيناي وهي تقف بملابسَ داخلية ومشدٍّ للصدر، وترفع تنّورتها إلى خصرها. كانت تغطٌ في نومها حين صعدتُ إلى الغرفة في الليلة السابقة، أو على الأقل تظاهرَت بذلك. رأتني أتحرّك في مرآة المزينة، فنظر كلٌ منا إلى الآخر لبرهة طويلة. ثم رأيتُ عينَيها ترمقان يدي المجبّرة بجبيرة كبيرة وبيضاء فوق البطانية. أما الكدمات الأخرى، فكانت متوارية تحت التيشيرت الذي أرتديه.

قلتُ لها وقد لاحظتُ أنها أجفلَت: «كُسر ظفران وأنا أغيّر إطار السيارة. يجب أن ترَي شكل الجرح.»

«كلّا شكرًا، يا ديفي. أنا مضطرة للذهاب.»

كان هذا قبل موعد مغادرتها المعتاد بنصف ساعة ولم أستطع منع نفسي من اختلاس النظر إلى المُنبِّه. كانت بالدماثة الكافية لتُشيح بنظرها بعيداً عني وأنا أحدّق في المنبّه، لتضبط ياقة بلوزتها في المرآة. خمّنتُ أنها أرادت الخروج من المنزل قبل أن يستيقظ أخي. أحيانًا يمكنني قراءتها بسهولة بالغة.

قلتُ لها: «زيارته لن تدوم سوى يوم أو يومَين فقط.»

أومأَت برأسها، وبدا فمُها بدون أحمر شفاه عبارة عن خطٍّ رفيع باهت. أنهَت روتينها المعتاد ببضع حركات خاطفة أخرى ثم غادرَت الغرفة، لتُخلّف وراءها لمسةً عطرية خفيفة في الأجواء. راقَتْني مشاهدة التغيير الذي حوّلها من كتلة ناعسة تشابكَت خصلاتُ شعرها إلى وكيلة عقارية بارعة، آية في الأناقة والتألق.

اختلق أخي كذبة الأصابع المكسورة. فلو كنتُ أخبرتُها عن عودة دينيس مرّة أخرى، لربما توجّهَت إلى الشرطة، أو لربما فعلَت الأسوأ واتصلَت بالرجل نفسه من مكتبها. بالطبع لا يزال بإمكانها أن تتصل به، ولكنى صدقتُ دينيس حين أخبرَني بأنها قد أنهت العلاقة، أو على الأقل صدّقتُ غضبَه وألمَه. يا له من أمر مضحك! ما كنتُ لأصدّقها هي.

غير أنها كانت مخاطرة بسيطة، وأدركنا أنه سيتعيّن علينا التحرك سريعًا. حتى إنها حين أغلقَت الباب الأمامي وراءها، سمعتُ أخي يفتح صنبور الدش. سننفِّذ اليوم. وبحلول وقت عودتها إلى المنزل من العمل، ستكون مشكلتنا الصغيرة قد حُلت.

أخرجتُ مبذلًا حين سمعتُ صرير صنبور مياه الدش يتوقّف عن العمل. كانت لحظة غريبة حين خرجتُ إلى بسطة الدرج ورأيتُه يقف هناك. أظن أن آخر مرة رأيتُه بمنشفة حول خصره حين كنّا طفلَين. لاحظتُ أنه بدا أقوى كثيرًا عن ذي قبل. لم يُراكِم أي دهون في جسمه، وبدا كما لو أنه يحافظ على لياقته البدنية بدرجة بالِغة. وكما تعلم هذا أسهل كثيرًا بالنسبة إلى الرجال ممّن لديهم مستويات عالية من التستوستيرون. فهم يستمتعون بممارسة الرياضة أكثر من غيرهم، إلى حد أنهم قد يُصابون بنوبات قلبية تقضي عليهم. عقدتُ ذراعي على مبذلي وأومأتُ إليه برأسي. لقد خطّطنا لكل شيء، لكني شعرتُ بقلبي يخفق بسرعة جنونية.

سألَني، وقد بدا الاستمتاع في نبرة صوته: «هل أنت مستعد، أخي الصغير؟ لا مجال للتفكير ثانية؟» لم يبدُ عليه التوتّر مطلقًا.

قلتُ: «لا مجال للتفكير ثانية.»

* * *

تحرّكنا سريعًا بعد ذلك. كان من المحتمل أن يتناهى إلى سمع دينيس أن كارول قد عادت إلى العمل. فعلى حدِّ علِمنا، كان دينيس يمُرُّ على المكتب صباح كل يوم، أو يدفع أموالًا للسكرتيرة نظير نقل أي أخبار عنها. ربما كانت المسألة مجرد توتّر وقلق، ولكن لم يكُن هناك ضَير على الإطلاق من تسيير الأمور بأسرع ما يُمكِن. كانت طريقة أخي في التخطيط لمجريات العملية تمنحنا فرصة واحدة فقط لتنفيذها على النحو الصحيح. وطمأنَني بأن الخطة ستنجح حتى وإن كانت كارول تعلم بوجوده في برايتون. لقد ذهب إلى المحكمة بسبب قضية بوبي بنريث وأفلَت منها. وسيفعلها ثانية.

جلستُ في المطبخ واضعًا الهاتف على الطاولة أمامي، أحدِّق فيه وحسب بينما أراجع في ذهني ما خطّطنا له. كان من الجيد جدًا أن أراجع التفاصيل في مخيِّلتي، ولكن عندما أرفع سمّاعة الهاتف وأطلب الرقم، ستكون العملية قد بدأَت بالفعل. بعد ذلك سيبدو الأمر وكأنك تهبط من على منحدر، ولا جدوى إذا غيّرت رأيك في منتصف الطريق.

قال أخي: «جرِّب الأمر معي أولًا.» كانت تلك هي أولى علامات التوتّر التي لاحظتُها عليه. هززتُ رأسي، مسترجعًا ما خطّطنا لقوله. كان هذا سيأتي بدينيس على جناح السرعة، أعرف أنه سيأتي به.

رأيتُه يصُبُّ كأسًا من الويسكي الذي اشتريتُه الليلة الماضية. فتراجعتُ على نحوٍ مفاجئ حين حرّك يده، إلا إن معظمها كان قد نال من وجهي. صرختُ في غضب، متذكرًا مايكل وهو يفعل الشيء نفسه.

قلتُ مُغمِضًا إحدى عينيّ بسبب اللسعة التي أصابتني: «ما الذي تفعله بحق الجحيم؟»

قال ساخرًا من تعبيرات وجهي: «أنت الآن مستعد لإجراء المكالمة الهاتفية. لقد كنت مسترخيًا على نحوٍ مُفرِط قليلًا قبل ذلك. استمر. افعلها.»

حدّقتُ في قصاصة الورق الموضوعة بجوار الهاتف التي تحوي رقم دينيس تانتر. كانت مكالمة واحدة لدليل الاستعلامات كفيلة بأن توفِّر لي آخر شيء احتجتُ إليه.

ضربتُ الأرقام وأخذتُ نفَسًا عميقًا.

ردّ صوتٌ نسائيٌّ لا أعرفه، يقول: «شركة دبليو تي ليميتيد.» ربما كانت سكرتيرة. حافظتُ على هدوئي. كان هذا هو الرقم الذي أُعطَى إليّ.

قلتُ بنبرة غير واضحة قليلًا: «آتِني بدينيس تانتر على الخط.» ساعدَتني الأبخرة المُعبّأة بالويسكي قليلًا، وعلى نحو غريب بما يكفي.

سألَتْني: «مَن المتحدث؟» شعرتُ بارتجاع الحمض إلى فمي وأجفلتُ من مذاقه.

«اذهبي وأحضِريه فحسب. أخبريه بأن يأتي ويُصلِح الفوضى التي أحدَثها، مفهوم؟ أخبريه أن ...»

سمعتُ أصواتَ تحويل الاتصال الدائر وكنتُ متأهبًا حين سمعتُ الصوت الجديد.

قال مايكل: «مَن المتحدث؟» كان هذا كل ما أردتُه.

قلتُ هازئًا به: «أيها النذل. لقد ماتت والملعون دينيس تانتر هو السبب، أليس كذلك؟ اذهب إلى الجحيم، أيها ...» توقفتُ فجأة، لأنخر في ثمالة كما لو كنتُ أبكي، أو أضغط بيدي على وجهي. كنتُ أمنح الرجل فرصة للرد.

«ديفي؟ مَن مات؟ ليست كارول؟ ديفي، أهذا أنت؟» ممتاز. استطعتُ أن أسمع نبرة الخوف في صوته. وكانت هذه مجرد البداية لما هو آتٍ.

«حبوب!» لفظتُ الكلمة بقوة عَبْر الهاتف، تاركًا أثر الويسكي واضحًا في نبرة صوتي، وتطايَر لعابي وأنا أتحدث في ثمالة. «أخذَت تضغط وتضغط، أليس كذلك، يا مايكل؟ أنت ودينيس. ضغطتُما علينا، والآن ماتت كارول. أُقسِم إنني ...»

أخذ أخي سمّاعة الهاتف مني وضغَط على زِرّ إنهاء المكالمة. كان وجهه مثالًا حيًّا للرهبة الرزينة.

قال: «أحسنت صنعًا، أيها الفتى ديفي. ينبغي أن يأتي هذا بهما على جناح السرعة.» أومأتُ إليه برأسي وأنا أمسح فمي بقوة.

تَمتَم وهو يُعيد سمّاعة الهاتف إلى مكانها مُصدِرًا خشخشةً قائلًا: «من الأفضل أن نستعد.» أحضر حقيبةً من السيارة وشاهدتُه يُخرِج قضيبًا حديديًّا بطول ثماني عشرة بوصةً لم يسَعْني سوى التقاطه. كان يتناسب مع قبضة اليد على نحوٍ جيد للغاية. أرجحته وتخيّلته وهو يشجّ جمجمة.

ولدهشتي كشفت الحقيبة عن عدد من القطع الأخرى من مواسير وغيرها من الأدوات المتنوعة.

قال: «هذا يفسِّر فيما بعدُ سبب وجود سلاح في متناول يدك بالمطبخ، أليس كذلك؟» وبابتسامة جادة، فتح الخزانة الموجودة أسفل الحوض وأطلعَني كيف قام بفك المواسير البلاستيكية. وأردَف قائلًا: «ربما لن يسألوا أبدًا، ولكني فكّرتُ في هذا الاحتمال اللعين. ولو فعلوا، فكلُّ ما سيجدونه هو أعمالُ سباكة. كنت في منتصف العمل عندما اضطررت إلى الخروج والبحث عن مكان لبيع قِطع غيار أخرى مماثلة لتلك التي كسرتها ببراعة بالغة. وبينما كنتَ في الخارج، زارك رجلان كنت قد تلقّيتَ تهديدًا منهما من قبلُ.»

نظرتُ إليه وأقسم إنه كان أهدأ مني. وفي غضون بضع دقائق، كان دينيس تانتر يقتحم منزلي للمرة الثالثة. أخرجتُ علبة لبن من الثلاجة وشربتُ منها لتهدئة معدتي.

مدّ أخي يده إلى سترته وأراني سكينًا مريعة الشكل.

قال: «سيأتيان مدجّجَين بهذه. إنها تُباع في أي متجر عتاد موجود في البلاد. وليس من المُستغرَب أن ترتعبَ وتلوِّح بقطعة من الماسورة في وجهَيهما. ستتصل بالشرطة، وقبل أن تصل الشرطة، سأعود. وسنتعامل معًا مع استجواباتها.»

سألته: «هل تعتقد أن هذا سيُجدي؟»

هزّ كتفَيه في لا مبالاة. ثم أردف: «لا أظن أن المسألة ستصل حتى إلى المحكمة. اثنان ضد واحد؟ ستُبرّأ بحجة الدفاع عن النفس، يا ديفي. لا مشكلة على الإطلاق. فقط ثق بي وسنُتمّم الأمر معًا حتى النهاية، اتفقنا؟»

نظرتُ في عينَيه مباشرة، وللحظة شعرتُ بالدموع تتجمّع في مقلتي. أومأتُ برأسي، وأشَحتُ بعيداً، متيقنًا من أنه رآني.

«الآن، ركِّز يا ديفيد. سيصلان إلى هنا في أي لحظة. لديك الجزء السهل. ستجلس في المطبخ وحسب كما خطّطنا. ستحتسي شرابًا، إذا تعيّن عليك ذلك، فقط لتبدو بائسًا.»

وبينما كنتُ أجلس، توجّه أخي إلى الباب الأمامي وتركَه مغلقًا دون أن يُوصِده بالمزلاج.

قال حين عاد إلى المطبخ ووقف خلف الباب: «ذكِّرني أن أكسِر المزلاج بعد ذلك.» ورفع القضيب المعدني في يده ولم أتمكّن من النظر إليه.

ثم سمعنا من الخارج هديرَ محرّك سيارة تقترب منّا بسرعة بالِغة. ثم توقفَت مُصدِرةً صوتًا حادًا. فأخذتُ نفَسًا عميقًا.

الفصل السابع

اقتحم دينيس تانتر بيتي في الساعة التاسعة وثمانٍ وعشرين دقيقةً صباحًا. كنتُ قد نظرتُ إلى ساعة الحائط؛ ولذا أعرف توقيت وصوله. صفع الباب الأمامي بقوة بالغة لدرجة أنني ظننتُ أنه كان سيكسر المزلاج لو كنّا أوصدنا الباب. ارتطَم الباب بعنف في الحائط ثم ارتد في كتفه بينما كان يشُق طريقه إلى الداخل. لقد قرأتُه قراءةً صحيحة، وسعدتُ برؤية ذلك. لقد أخبرتُ أخي بأنه ليس من نوعية الرجل الذي يرسل حارسه مايكل أولًا، لن يفعل إذا استشاط غضبًا. لم يبدُ أن هذا قد أزعج أخي؛ ولكنني أردتُ أن يدخل دينيس أولًا. لقد كان هو مصدر الخطر، لا حارسه. عرفتُ هذا من البداية.

لم يكُن لديه أدنى فكرة عما كان يحدث. استطعتُ أن ألاحظ هذا منذ اللحظة التي رآني فيها في المطبخ. كنتُ أبدو مثيرًا للشفقة، والدموع تنسابُ على وجهي وقد ارتسَم عليه الخوف والذهول. كان من الصعب أن تتصنّع تعبيرًا زائفًا حين تعرف أن شخصًا ما سوف يموتُ في غضون الدقائق القليلة القادمة ومن المرجّح أن تكون أنت هذا الشخص.

هدَر في وجهي متسائلًا: «أين هي؟» تأجّج وجهه بحمرة شديدة من فَرط الانفعال، وظننتُ للحظة بغيضة أنه سينطلق إلى الطابق العلوي ليفتّش غُرَف النوم بحثًا عنها. هززتُ رأسي وأومأتُ عَبْر المطبخ على نحوٍ مُبهَم. فعبَس في وجهي ورأيتُ قبضتَيه ترتفعان في الهواء وهو يخطو عَبْر الباب. وقف مايكل كظل في الردهة الممتدة وراء دينيس، إلا أنني لم أشاهد أحدًا سوى دينيس بينما كان أخي يهاجمه بضربة. يا إلهي، كان سريعًا. لعلك لم تَرَ شيئًا كهذا قَط من قبلُ.

لم يكُن صوتًا ساحقًا. بل بدا وكأنّ جوالًا من الدقيق قد انفتح بقوة، كان أشبَه بضربة ناعمة بشكلٍ ما. أخذتُ أحدّق مباشرة في دينيس، وأقسِم إنني رأيتُ طرَف القضيب مغروسًا في رأسه قبل أن يرتَد. الغضب، الطيش، كل شيء يتعلق بذلك الذي يُدعى دينيس تانتر ذهب في غمضة عين. عاجلَه أخي بضربه مرّة أخرى عندما شرع في السقوط، ثم مرّة ثانية. لم أستطع تمالُك نفسي من تذكّر الطريقة التي ظلّ أخي يركلُ بها الرجل الذي قتلَه في كامدن، وحينئذٍ أدركتُ أنه سيترك في أعقابه جثةً واحدة على الأقل. ثمّة لحظاتٌ في حياتنا تنهار فيها الأكاذيب التي نردِّدها على أنفسنا.

وفي رأيي، كانت هذه واحدةً منها.

تجاهل أخي وجود مايكل؛ إذ وقف الرجل مذهولًا عند مدخل الباب، وقد فغَر فاه في فزع. وعوضًا عن ذلك، نظر أخي الأكبر «إليّ» وابتسَم ابتسامةً عريضة. لم يبدُ أنه يبالي بوجود مايكل. راقبتُ الموقف وأنا في حالة من الانبهار المرَضي بينما كان أخي يلكز دينيس بقدمَيه. فانتفضَت الجثة وظننتُ أنني ربما أتقيأ.

قال: «لا شك أنه مات، أو أصبح جسدًا عديم الفائدة،» وأقسِم بأنه أخذ يُقهقِه بعد قوله هذا. قلما رأيتُه في حالة أسعد من تلك. ولعلك الآن تفهم لماذا كنتُ أخافه دومًا. لم يكُن خوفي منه نابعًا مما كان يفعله؛ بل كان نابعًا مما هو قادرٌ على فعله.

شرع مايكل في التحرك وكان من دواعي سروري أنني لم أتمكن من رؤية تعبيرات وجه أخي حين استدار لينهي المهمة. ثمّة قروش في هذا العالم، ومثلما حدث مع بوبي بنريث من قبله، لم يكُن مايكل مستعدًا لمقابلة قرش يفوقه ضخامةً في مطبخي، في ذلك اليوم. رأيتُه يمُد يده داخل معطفه بحثًا عن أي سلاح من أي نوع. ولم يكلف أخي نفسه عناء إيقافه. فقط ضرب بالقضيب بقوة على صدغ مايكل، محطمًا شيئًا ما بالداخل. سقط مايكل بالسرعة نفسها التي سقط بها دينيس تقريبًا؛ إذ انقطعَت الإشارات المُرسَلة من مخه إلى ساقَيه.

وقفتُ على قدميّ وقد انتابتني حالة أشبه بغيبوبة، لا أستشعر شيئًا حيال مايكل سوى الشفقة فحسب. فهو في النهاية كان أجيرًا، إلا إنني جلستُ وشاهدتُه وهو يلوي أصابعي بالكامل ولم أطلق استغاثةً لإنقاذه، حتى لو كان بإمكاني ذلك.

دائمًا ما أتخيّل الرجل الذي استأجره دينيس لبثّ القليل من الرعب في نفوس مَن كان يتعامل معهم، رجلًا ضخم البنية، ليس سريعًا، وإنما قويٌّ. اندهشتُ وأنا أشاهد أخي وهو يتوعده بينما يكيل إليه الضربات مرّة أخرى. الخوف يجعلك تنكمش بشكل أو آخَر، بينما الشجاعة تجعلك تبدو في حجم أكبر مما أنت عليه فعليًا. لقد لاحظتُ هذا من قبلُ.

وجدتُ قطعة الماسورة الخاصة بي في حقيبة السباكة التي جلبها أخي معه. لا أظن أنه سمعني قادمًا، وحتى وإن سمعني، فلم يتوقع أن أحطّمها على رأسه بكل ما أوتيتُ من قوة اكتسبتُها على مدار سنوات من الخوف والكراهية. لقد رأيتُه يهشّم جمجمةً قبل بضع لحظات فحسب ويُسعِدني أن أقولَ إنني أنجزتُ المهمة على نحوٍ بارع مثلما أنجزَها هو. قتلتُ أخي بينما كان يضربُ مايكل للمرة الثانية، حتى بدَت الضربتان شبه

متزامنتَين. سقط على جانبه، ليتمدّد فوق الجثّتَين. لم يتحرك قيد أنملة وكِدتُ أتركه على هذا الوضع؛ لولا أنه كان يرى فيما يبدو أن الأمر يقتضي ضربتَين لضمان إنجاز المهمة. حبستُ أنفاسي وهوَيتُ بالماسورة مرّة أخرى على جمجمته بكل ما أوتيتُ من قوة. كانت في حالة رخوة بالفعل وشعرتُ برخاوتها. كانت عيناه مفتوحتَين ولا أظن أنه كان لا يزال يشعر بأي شيء. فقد كانت الضربة الأولى شديدةً جدًا.

تساقطَتْ بعضُ قطرات الدماء، إلا إن الأمر لم يكُن سيئًا للغاية. فكان أغلبُها يسيل عليهم وانتشرَت عَبْر المطبخ. بدا الأمر كما قال تمامًا: مشهدٌ عنيف لمشاجرة وقعَت قبل قليل.

وقفتُ أنظر إليهم لوقت لا أستطيع أن أحدِّده. خانتني معدتي بالطبع؛ ولذلك أهدرتُ بضع دقائق أتقيأ في الحوض وأتساءل عما إذا كان عليّ أن أتخلص من أثر القيء أم أتركه كرد فعلٍ منطقي لمثل هذا المشهد المرعب. وفي النهاية، تركتُه. ستأتي الشرطة لاستجوابي أخيرًا وكنتُ أعلم أنها ربما تكون متعنّتة في استجوابها. ولكن كان أخي محقًا بخصوص شيءٍ واحد. فبموته ستُفلِح حجة الدفاع عن النفس على نحوٍ أفضل. راودَتني فكرة بأنني ربما ينتهي بي المطافُ بالظهور في صورة البطل.

عندما توقفَت معدتي عن التشنّج، جلستُ إلى طاولة المطبخ وأعدَدتُ نخبًا أخيرًا لثلاثتهم.

رفعتُ كأسي لأخي. وقلتُ له: «هذا نخب الرجولة والنضج، يا بُني الكبير. ما كان ينبغي لك أن تنامَ معها. كان هذا أكبر من قدرتي على الاحتمال بكثير. ولكن كل شيء صار في طي النسيان الآن.»

وجدتُ نفسي أضحك، وبذلتُ جهدًا لأتوقف عن الضحك. وتساءلتُ في نفسي ما إذا كان قد عرف أنني اكتشفتُ الأمر، وأن كارول فجّرَت المفاجأة في إحدى مشاجراتنا. لم يكُن من نوعية الأشخاص الذين يشعرون بالذنب. وليس لديّ أدنى شك من أنه كان من دواعي سروره أن يجد امرأةً جميلةً ترغب في إضاعة عصر يومٍ من أيامها معه، بغض النظر عن هُوية الرجل الذي كانت متزوجة منه. كان من الغريب ملاحظة الطريقة التي كانا يتصرفان بها معًا بعدما عرفتُ بأمر علاقتهما. ومهما كانت مرارة الذكرى التي بنياها معًا، كان بمقدوري أن ألاحظ ذلك. لعلها رفضَت لقاءً ثانيًا، أو لعل هو مَن رفضها. لم تهمّني المسألة كثيرًا، أو بالأحرى لم تعُد تهمّني بعد الآن.

كانت رؤية مشهد الجثث في مطبخي أمرًا غريبًا. لقد رأيتُ المشهد في مخيّلتي بما

فيه الكفاية، ولكن الوصول فعليًا إلى هذه النقطة أشبَهُ بلحظةٍ توقّف فيها الزمن وربما كانت مخيفةً أكثر من ذلك بعض الشيء. إن الحقيقة أشبه بذلك، كما اكتشفتُ.

كنتُ قد تدبّرتُ معظم التفاصيل بينما كنتُ أقف في عرض البحر المتجمد منتظرًا من أخي أن يقرأ الرسالة التي تركتُها لكارول ويأتي إليّ ويصحبني. أتذكّر قلقي من احتمال تعرّضه لحادث أو تعطّل أحد إطارات السيارة، وحينها ستذهب كل جهودي سدًى. كنتُ «أعرف» أن رؤيته لي هناك ستجعله يأخذ صفّي. لطالما كنتُ النقطة العمياء التي يغفل عنها؛ أنا أخوه الصغير. لا أظن أنه كان يهتم بأي مخلوق حي. ولا أخجل من أن أقول إن الدمع ترقرق في عيني لبُرهة وأنا أنظر إليه. فالإخوة يربطهم رباطٌ وثيق.

لم أكن بحاجة إلى إقناعه بعد أن وجدني واقفًا على عمق قدم وسط المياه تحت جنح الظلام، محاولًا بأقصى جهد تخيُّل ما يبدو عليه الانتحار. ما كان من الممكن أن تسير الأمور على نحوٍ أفضل من ذلك حقًا. فقد سُدِّدَت جميع ديوني، وتمنّيتُ لو أن بوبي بنريث عرف أنها قد سُدِّدَت.

ستَلقَى قصتي قبولًا لدى الشرطة، إذا ما تركتُ فيها أجزاءً ناقصةً صادمةً بما يكفي. وقد كانت قصةً بسيطةً بما يكفي على أي حال. سأتركُه يقودني إلى حيث أراد أن يذهب. مجرّد أخوَين يُصلِحان ماسورةً في مطبخ وهجم عليهما مجرمان عتيدا الإجرام. تساءلتُ في نفسي ما إذا كان ينبغي أن أوضّح وضع كارول للشرطة. كلا. لم أكُن أريدهم أن يعرفوا أن لديّ دافعًا من أي نوع. فكّرتُ أنهم سيعتقدون أن دينيس كان مفتونًا بها دون أن يعرفوا أنه حاول مواعدتَها بالخارج أيضًا بضع مرات. وأتت الخطة ثمارها على نحوٍ رائع.

خرجتُ عَبر الباب الأمامي، مغلقًا إياه ورائي. كان الجيران في أعمالهم كما هو معتاد دومًا؛ ومن ثَم لن يكون هناك أي شهود تستطيع الشرطة استجوابهم. تطلّب الأمر مني بضع ضرباتٍ عنيفة بكتفي لكسر المزلاج. لا شك أنها ستخلِّف لديّ كدمةً أخرى لأريها للشرطة عندما أخبِرهم كيف عذّبني دينيس تانتر. ممتاز.

تذكّرتُ أن أضع ماسورتي في يد مايكل بينما كنتُ أبعثر محتويات حقيبة السباكة على أرضية المطبخ. وجدتُ سكينًا في جيبه الآخر، السكين التي كان يبحث عنها عندما أسقطه أخي بضربة. وبعد قليل من التفكير، جعلته يمسكها في يده الأخرى، منتبهًا لبصمات أصابعي.

كانت هناك أشياءُ كثيرة عليّ تذكرها. سيكون هناك دماءٌ متناثرة على ثيابي، ولكن

رأيتُ أنه لا بأس من ذلك. أدركتُ أن لولا وجودها على ملابسي، لصار الأمر مثيراً للشك بالنظر إلى هذه المساحة الصغيرة، مع وجود ثلاثة رجال أُوسعوا ضرباً حتى الموت. كنتُ سعيداً بقدرتي على التفكير بوضوح.

عندما جلستُ أخيراً، أمسكتُ الهاتف بيدي لأتصل بالشرطة. لقد فعلتُ كل ما بوسعي، وقلتُ في نفسي، أجل يا ديفي، ستُفلِت بها. رددت تلك الكلمات بصوت عالٍ وثبات، بينما كانوا جميعاً مستلقين على الأرض ينزفون. كانت هذه إحدى المفاجآت. كان حجم الدماء المُسالة في حد ذاته صادماً مهما كان ما سمعتُ عن كمه. لا يبدو ممكناً أن يحوي جسدك كل ذلك الكم من الدماء. ليس صحيحاً أيضاً أن الموتى لا ينزفون. فهؤلاء كانوا ينزفون، على الأقل لمدة وجيزة. كان المطبخ مغطّى بالدماء وما زلتُ لا أصدّق مدى لزُوجتِه عندما يلتصق بك. ثمّة درجاتٌ مختلفة من اللون الأحمر أيضاً.

كنت أظن أن بإمكاني التعامل مع دينيس تانتر، مثلما تعاملتُ مع بضعة رجال آخرين على مَر السنين. وعندما أدركتُ أنني لا أستطيع، ظننتُ أنني سأترك أخي يتولى أمره. كانت فكرةً عقيمة في البداية أن أرى كم سيكون لطيفاً أن يُجهِز كلا الوغدَين على الآخَر. غير أنني لم أفكّر حقاً في تبعات الموقف. ولو أن هناك مكاناً للتفكير في تبعات الموقف، لكان ذلك المكان هو المطبخ الذي تحوّل إلى بركة من الدماء وتفوح منه رائحة تجعلني لا أرغب مطلقاً في الاقتراب منه مرّة أخرى.

لا تُتاح لك فرصة كهذه كثيراً كما تعرف. نعم، يُمكِنني الفوز بالقضية، هذا إن كانت ستُنظَر أمام المحكمة. ويجب على النيابة العامة أن تقرّر ما إذا كانت هناك قضية يُمكِنها الفوز بها، وحجّتي المتمثّلة في الدفاع عن النفس ضد هؤلاء الأوغاد كانت مثالية تماماً. كان بإمكاني الرحيل، ولكن كارول. هل أردتُ حقاً أن أرحل معها؟ لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنها لو كانت وسط هذه الفوضى حين جاء دينيس ومايكل، لربما كانت ممدّدةً على الأرض جثةً هامدة أيضاً وأصبحتُ أنا حرّاً. حرّاً طليقاً بحق، على عكس شعور الحرية الصوري الذي استمتعتُ به بضع لحظات قصيرة.

من الواضح أنه كان يوماً للبدايات الجديدة. وبدلاً من الاتصال بالشرطة، اتصلتُ بها وأخبرتُها بأنني سأبتلع حبوبها المنوِّمة دفعةً واحدة. ثم أغلقتُ الخط في منتصف جملة ما، وأزلتُ بطارية الهاتف. لم يساورني القلق. فسأتولى التفاصيل قبل أن تصل هي إلى المنزل.

جدول المحتويات

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع